الكتاب رقم
(٢١)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

العفاف

تأليف
إبراهيم بن عبد الرحمن الرميحي
غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (٢١)

العَفَـــــــاف

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

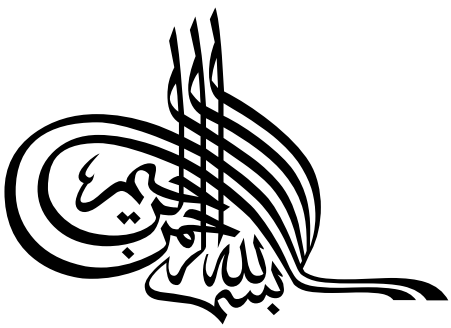
بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

مقدمة ٥

التعريف ٧

أنواع العفة ٩

شروط العفاف ١٨

فضل العفاف وضرورة المؤمن له ٢٠

من أعظم العفاف حفظ الفرج ٥٢

بم تحفظ الفروج؟ ٥٥

عفاف الفرج سبيل الجنة ٥٨

شناعة فاحشتي الزنا واللواط، وخبثهما وشقاء أهلهما ٦٥

قبح المعصية ٨٢

عوائق في طريق العفة ٨٨

الوسائل المعينة على العفة ١٠٧

من أخبار أهل العفاف ١٨٧

نداءٌ مشفق من عسكر الأموات! ٢١٦

مُقَدِّمَة

الحمد لله أمر بالعفاف ويسّره، وزجر عن الفحشُ وبَشّعه، كلُّ شريعته بِرٌّ وطُهْرٌ وخيرٌ، ما قال عاقل قطّ: ليته لم يحرّم كذا، أو لو أنه أحلّ كذا، أو من الصالح لو أوجب أو شرع كذا. فشريعته تامّة، ودينه كامل، ورحمته وافية، ولطفه واسع، وحكمته لا تحيط بها الأفهام. ولو تأملت أصولَ وأطرافَ شريعتِهِ لرأيت أنّ العفاف يحوطها من سائر جهاتها، فدينُ الله عفافٌ كلّه.

إنّ العفافَ تاجُ أخلاق المؤمنين، وشمسُ صفات المتقين، وبرهانُ نُبْلِ السَّبَّاقِين، وقد أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات العالية، ذلك أنّه لا يكون إلا لشريفِ النفسِ، سامي الخُلُقِ، عظيمِ قدرِ النَّفْسِ، مأمونِ الجوانب الغادرة.

ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّلهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات، لأنهم تسامَوا بنقاء أرواحهم وحسن تديّنهم عن كلّ ما يشوب ذلك النقاء، أو يُكدّر ما هنالك من الصّفاء، أو يخدش جناب الإيمان.

وإنه لخُلُقٌ قلبيٌّ قبل أن يكون ظاهرًا، فالقلب العامر بمحبةِ الله تعالى، والحياءِ منه، وحسنِ الرجاء فيه، وخشيتِهِ وعظيمِ الخوف منه، وتمامِ التوكل عليه؛ لا بدّ أن يثمر ذلك صحيح العفاف.

فالعفاف عمل قلب؛ لأنّهُ حركةُ القلب للصلاح والمباح، وكفّه وسكونه

وازوراره عن المشتبه والحرام، فهو عملٌ من هذه الحيثية، وهو كذلك ثمرةٌ من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظُهوره في الثمرة أجلى من العمل، وعليه؛ فيصح لنا القول: إنّ العفافَ عملٌ من أعمال القلب وثمرةٌ لِطَيِّبِ أقواله وأعماله كذلك.

وبين يديك - أخي في الله تعالى - صفحات في بيان شيء من حقوق هذا العمل القلبي الجميل، من حدِّه، وأنواعه، وشروطه، وفضله، وعظيم أجره، وضرورة المؤمنين له، وسبل تحصيله، وعوائقه، وشيء من أخبار أهله، ونحو ذلك مما يلزم بحث هذا الأمر العظيم، سائلًا ربي العظيم المعونة والسداد في الأمر كله، وحسن القصد والقول والعمل والخاتمة، ولله الحمد، وبه التوفيق، وصلى الله وسلم وبارك وأنعم على خير البرية نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٧/ ٩/ ١٤٣٩هـ

aldumaiji@gmail.com

التعريف

العين والفاء أصلان صحيحان، أحدهما الكفّ عن القبيح، والآخر دالٌّ على قلّة شيء. فالأول هو العِفَّة: وهي الكف عما لا ينبغي. ورجل عفٌّ وعفيف(١).

والاستعفاف: طلب العفاف، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [النور: ٣٣]؛ أي ليضبط نفسه بمثل الصوم فإنه وِجَاء، وكذلك في الحديث: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفُّهُ اللهُ**». وقال ابن منظور: «العفّة: الكفّ عمّا لا يحلّ ويجمل، والعفّة أيضًا: النزاهة» (٢).

وقال الجاحظ: «هي ضبط النفس عن الشهوات، وقصرها على الاكتفاء بما يقيم أَوْدَ الجسد، ويحفظ صحته فقط، واجتناب السّرف في جميع الملذات، وقصد الاعتدال، وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الوجه المستحبّ المتّفق على ارتضائه، وفي أوقات الحاجة التي لا غنى عنها، وعلى القدر الذي لا يحتاج إلى أكثر منه، ولا يحرس النفس والقوة أقلّ منه، وهذه الحال هي غاية العفة» (٣).

قلت: وفي تعريفه تكلّف وتشديد، فليس من شرط العفة ترك جميع الملذوذات والمشتهيات، إنما حدّها: ترك ما لا يجمل من محرّم ومشتبه

---

(١) ابن فارس في معجم المقاييس (٦٢١).

(٢) لسان العرب (٤/ ٣٠١٥).

(٣) تهذيب الأخلاق (٢١، ٢٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومستعاب. والله أعلم.

ويقال: «رجل عفٌّ وعفيفٌ، والأنثى بالهاء، وجمع العفيف: أعفَّة وأعفَّاء»[(١)].

وقال الجرجاني ـ رحمه الله تعالى ـ: «العفّة: هي هيئة للقوة الشهويّة متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطه. فالعفيف من يباشر الأمور على وفق الشرع والمروءة» [(٢)].

قلت: وكلّ تعاريفهم راجعة إلى كفّ النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه يقترب صاحبه من كماله في نفسه ورفعته عند ربه تعالى.

(١) الصحاح (٤/ ١٤٠٥- ١٤٠٦)، والمفردات (٣٣٩).

(٢) التعريفات (١٥١)، والتوقيف على مهمات التعاريف للمناوي (٢٤٣). وانظر: نضرة النعيم (٧/ ٢٨٧٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أنواعُ العفّة

العفة أنواع عديدة، وجماعها: الكفّ عن الحرام، والاستيحاش منه، والازورار بعيدًا عن ذرائعه. وهي منقسمه على الجوارح، وأصولُها ثلاثة:

عفّة الفرج، وعفّة اللسان، وعفّة البطن، والبقيّة متفرّعة عنها، كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر ونحو ذلك.

قال الماوردي رحمه الله تعالى: «العفّة والنزاهة والصيانة من شروط المروءة، والعفّة نوعان: أحدهما العفة عن المحارم، والثاني العفة عن المآثم.

فأما العفة عن المحارم، فنوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كفّ اللسان عن الأعراض.

فأما ضبط الفرج عن الحرام؛ فلأنّ عدمه مع وعيد الشرع وزاجر العقل مَعَرَّةٌ فاضحة، وهتكة واضحة.

وأما كفّ اللسان عن الأعراض؛ فلِأَنَّ عدمه ملاذ السفهاء وانتقام أهل الغوغاء، وهو مستسهل الكفّ، وإذا لم يقهر نفسه عنه برادع كاف، وزاجر صاد، تلبَّط بمعارِّه، وتخبَّط بمضارِّه.

وأما العفة عن المآثم فنوعان أيضًا: أحدهما: الكف عن المجاهرة بالظلم، والثاني: زجر النفس عن الإسرار بخيانة.

فأما المجاهرة بالظلم فعتوٌّ مهلك وطغيان متلف، ويؤول إن استمر إلى فتنة تحيط في الغالب بصاحبها فلا تنكشف إلا وهو مصروع.

وأما الاستسرار بالخيانة فضَعَة؛ لأنه بذل الخيانة مهين، ولقلة الثقة به مستكين، وقد قيل: من يخن يهن.

هذا ولا يجعل ما يتظاهر به من الأمانة زورًا، ولا ما يبديه من العفة غرورًا، فينتهك الزور وينكشف الغرور، فيكون مع هتكه للتدليس أقبح، ولمعرَّة الرياء أفضح» (١).

قلت: ويدخل في النوع الثاني العفة عن أكل أموال الناس بالباطل.

وقال ابن الجوزي رحمه الله: «الكمال عزيز والكامل قليل الوجود، وأول أسباب الكمال تناسب أعضاء البدن وحسن صورة الباطن، فصورة البدن تسمى خَلْقًا، وصورة الباطن تسمى خُلُقًا، ودليل كمال صورة البدن حسن السمت واستعمال الأدب، ودليل كمال صورة الباطن حسن الطبائع والأخلاق.

فالطبائع: العفة، والنزاهة، والأنفة من الجهل، ومباعدة الشَّرَه.

والأخلاق: الكرم والإيثار وستر العيوب وابتداء المعروف، والحلم عن الجاهل.

فمن رزق هذه الأشياء رقَّتْه إلى الكمال، وظهر عنه أشرف الخلال، وإن نقصت خلة أوجبت النقص» (٢).

وإذا ضبط المرء عفته في أنواع العفة الثلاث: اللسان والبطن والفرج؛ فقد

(١) أدب الدنيا والدين (٣٨٤ - ٣٩٠)، بتصرف عن: نضرة النعيم (٧ / ٢٨٧٤).
(٢) صيد الخاطر (٢٨٩).

انتظمت له سائرها، وتيسرت له عواقبها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف. وهي كالتالي:

أولًا: العفة عما في أيدي الناس:

وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم. قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]، وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئًا؛ وأتكفَّل له بالجنة**». فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحدًا شيئًا(١).

ثانيًا: كف اللسان والجوارح عن الأعراض والدماء:

فيجب على المسلم كف لسانه عن أعراض الناس، وألا يقول إلا طيبًا. فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه، ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**» (٢).

ويتبع اللسانَ القلمُ والكتابةُ، فالقلم هو اللسان الثاني، وهو أشدُّ وقعًا في أحيانٍ كثيرة، وإذا كان اللسان يُسمع وينسى، فمِدادُ القلم باقٍ في العادة ما بقي الناس! فيُشَرِّقُ ويُغرِّبُ ويطير طيران الطير في الأرجاء إخبارًا وإعلامًا وإنذارًا وتبشيرًا وتعليمًا، ولربما بقي آلاف السنين يتداوله آلاف البشر، وكم من كتاب

---

(١) أبو داود (١٦٤٣)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣).

(٢) البخاري (١٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كان أثرُهُ أبلغَ من ألفِ خطابٍ، ولَرُبَّ كتابٍ ناصحٍ أبَرّ مِن ولدٍ صالح، فمِن هٰهنا كان خطره أعظم!

وإنّ مما ابتليت به الألسن في هذا الزمان؛ الحكم على الناس على وفق لون الناظر، فيلزم نفسه تصنيف الناس مهما كان حالهم، فلا يسعه ما وسع السلف الصالح من انشغالهم بما خُلقوا له، والاكتفاء بإصلاح عيوبهم وما استطاعوا من نصح الناس بالتي هي أحسن. وليس القصد منع نقد الناس، أو سدّ باب تصحيح مسارات التوجّهات، أو وزن الأفراد والجماعات بميزان الشرع الحنيف، كلّا؛ بل لا زال هذا ديدن السلف نصحًا لله تعالى، وأمرًا بالمعروف، ونهيًا عن المنكر، وتعاونًا على البرّ والتقوى.

والناس إذا لم تتواصَ بالحقِّ؛ غلبهم الباطل، واتّبعوا الهوى، وضلّوا الهدى، بل على كلّ قادر عليم أن يبذل وسعه في ردّ الناس لجادة المرسلين شفقة عليهم من غلبة الشيطان الرجيم وزيغه وفتنه، سواء أكان ضلالهم بسبب شبهة وبدعة، أو بسبب شهوة محرّمة، والله لا يضيع أجر المصلحين، ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: ١١٧].

إنما المقصود؛ التمهّل والتّؤدة والتّثبّت والتّبيّن، ووضع الأولويات بحسب ترتيب الشرع لا الهوى، وحِساب خطر الكلام، فرب كلمة تهدم دينًا وتُركِسُ صاحبها في هَوِيِّ الدركات، وربّ كلمة ترضي خالقَهَا، وترفع صاحبَهَا إلى علّيين.

وفي «السنن» من حديث أبي سعيدٍ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إذا أصْبَحَ ابنُ آدمَ فإنَّ الأعضاءَ كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسانَ؛ تقولُ: اتَّقِ اللهَ! فإنَّما نحْنُ بكَ، فإنَّ استقمتَ اسْتَقَمْنا، وإن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا» (١). قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «قولُهُ: **«تكَفِّر اللسان»**، قيل: معناهُ: تَخْضَعُ له. وفي الحديث أنَّ الصحابةَ لمَّا دخلوا على النَّجاشيِّ؛ لم يُكفِّروا له؛ أي: لم يسجُدوا ولم يخضعوا، ولذلك قال له عمرُو بنُ العاص: «أيُّها المَلِكُ؛ إنَّهم لا يُكَفِّرون لك». وإنَّما خَضَعَتْ للِّسان؛ لأنَّه بريدُ القلب وتَرْجُمانُهُ والواسطةُ بينه وبين الأعضاءِ. وقولُها: **«إنَّما نَحْنُ بكَ»**؛ أي: نجاتُنا بك، وهلاكُنا بك، ولهذا قال: فإن استقمتَ استقَمْنا، وإن اعوججتَ اعوجَجْنا» (٢).

وتأمل مليًّا حديث معاذ رضي الله عنه ووصية رسول الله ﷺ له: **«ألا أُخبِرُكَ بِمَلَاكِ ذَلِكَ كُلِّهِ»؟** قلتُ: بلى يا نبيَّ اللَّهِ، فأَخَذَ بلِسَانِهِ قال: **«كُفَّ عَلَيْكَ هذا»**، فقُلتُ: يا نبيَّ اللَّهِ، وإنَّا لمُؤَاخَذُونَ بما نَتَكَلَّمُ بِهِ؟ فقال: **«ثكِلَتْكَ أُمُّكَ يا مُعَاذُ، وهل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وُجُوهِهِمْ أو على مَنَاخِرِهِمْ إلا حَصَائِدُ ألسِنَتِهِمْ»** (٣). فحصائدُ الألسن من العظائم المغفول عنها، حتى إذا حقّت الحقائق كثر النادمون، ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ [النور: ١٥]، ولا إله إلا الله العلي العظيم.

واعلم ـ رحمني الله تعالى وإيّاك، وسلكنا في الصالحين المصلحين ـ أنّ

---

(١) الترمذي (٢٤٠٧) وأحمد (٣/ ٩٦) وحسنه الألباني.

(٢) الترمذي (٢٤٠٧) وأحمد (٣/ ٩٦) وحسنه الألباني.

(٣) الفوائد لابن القيم ١/ ٨١

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المصلحين أنواع، ومتى استقام القلب واللسان استقام حال صاحبهما بإذن الله تعالى، وسنشير إلى اثنين منهم من جهة الدافع، فمنهم من هو صالحٌ في نفسه، طيب نقيّ، كما أنّه مصلح لغيره، لكنه خاملٌ لا يتحرّكُ إلا بدفع غيره له، ومنهم الصالح المصلح الجادُّ العزّامُ المبادر المُثَابِرُ، فلا تراه إلّا مُفكّرًا فيما يحتاجه الناس، وما يصلح لهم، ويصلحهم، وينفعهم في دينهم ودنياهم. فتراه بقدر وسعه وطاقته على الدوام يسعى لتنويلهم وإعانتهم على تحصيل مصالحهم، وسوقِ من يستطِيع من الصالحين معه، حتى يكونوا كوكبةً صالحة مُصلحة، وهذا هو الذي يغيّر في العالم شيئًا إلى الصلاح والبرّ والهدى والاستقامة والسلامة والبر والسعادة، أكثرَ اللهُ تعالى في العالمين منهم.

والدعوة إلى الله تعالى وتعليم الناس دين الله من أعظم أبواب الجهاد، والله تعالى يقول في شأن القرآن العظيم: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا ٥٢﴾ [الفرقان: ٥٢]. وتأمل جمال هذا الخبر الرسولي وما فيه من البساطة النبوية والجهد الدعوي والشفقة المصطفوية والحزم المحمدي ﷺ، فعن أوس بن حذيفة الثقفي رضي الله عنه، قال: قدمنا وفد ثقيف على النبي ﷺ فنَزل الأحلافيّون على المغيرة بن شعبة، وأنزل المالكيين قُبَّته. قال: وكان رسول الله ﷺ يأتينا فيحدّثنا بعد العشاء الآخرة حتى يُرَاوِحَ بين قدميه من طولِ القيام، فكان أكثر ما يُحدّثنا اشتكاء قريش؛ يقول: كنّا بمكة مستذلّين مستضعفين. فلمّا قدمنا المدينة انتصفنا من القوم، فكانت سجال الحرب علينا ولنا.

فاحتبس عنا ليلةً عن الوقت الذي كان يأتينا فيه، ثم أتانا، فقلنا: يا

رسول الله احتبست عنا الليلة عن الوقت الذي كنت تأتينا فيه. فقال رسول الله ﷺ: **«إنّه طرأ عليّ حزبي من القرآن، فأحببتُ ألّا أخرجَ حتى أقرأه»**، أو قال: **«أقْضِيَه»**.

قال: فلما أصبحنا سألنا أصحاب رسول الله ﷺ عن أحزاب القرآن كيف تحزّبونه فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة وحزب المفصل» (١). فتأمل هذا الخبر وما تحته من معاني الجمال والدعوة الحسنى والنبل العظيم والنصح الكبير. وتأمل هذا القيام الطويل بعد العشاء! فحياته دعوته، ودعوته حياته، وهذا جهد بدنه فما جهد ورثته؟! صلوات الله وسلامه وبركاته وملائكته والصالحون من عباده عليه وآله.

ويلحق بالعفاف في هذا الباب: الكفّ عن الدماء، والبعد عن أخطار مزالقها، والهرب من وخيم ورطاتها، وعظيم تبعاتها، والازورار عن تخوُّضها بلا برهان شريعة.

ومما يتبع العفافَ ههنا أيضًا: لَحْظُ العين، أو حركةُ اليد، أو غيرُهما بازدراءٍ، أو همز، أو لمز، أو أي أذيَّةٍ لأيّ كائن ـ حتى لو كان كافرًا أو بهيمة أو طيرًا ـ لم يأذن بها الله عز وجل.

---

(١) مسند أبي داود الطيالسي (١١٠٨)، وأبو داود السجستاني (١٣٩٣)؛ وابن ماجه (١٣٤٥). وحسنه محمد الأمين الهرري في مرشد ذوي الحجا والحاجة إلى سنن ابن ماجه (٢٣٥/٨).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثالثًا: عفة الفرج عمَّا حرم الله تعالى:

وهي سيّدةُ العفاف عند الإطلاق، ومتى عفَّ الفَرْجُ نزل الفَرَجُ، وفتنةُ بني إسرائيل كانت مِن هٰهنا، وقد خاف علينا ﷺ فتنتَي المال والنساء، فمِنَ الناس من يكون ضعفه من جهة فرْجه، ومنهم من يكون من جهة حبّ المال، ومنهم من يكون بفتنة حبّ الخمر، ومنهم من يكون بحبّ الجاه.. وغير ذلك، والشيطان يشُمُّ قلبَ العبدِ، فيَلِجهُ مِنْ أضعفِ مَمَرَّاتِهِ، خاصَّةً إنْ لم يكُ مُحَصّنًا بإيمانٍ وعلمٍ وذكرٍ. والله المستعان.

وتأمّل هذا البيان الرسوليّ العظيمَ، والشفقةَ النبويّة الحنون، والنُّصحَ المحمّدي الكبير، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وإنّ الله مستخْلِفُكُم فيها، فناظرٌ كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإنَّ أوّلَ فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»(١). فقد أخبرنا بمصارع من قبلنا، ثم حذرنا سيرهم بين حفرتي المال والفرج، لأنّ المآل سينتهي بمن مشى ممشاهم كما انتهى بهم، إن لم يعتصم بالله تعالى وبدينه العظيم. وصدق الله ومن أصدق من الله حديثًا: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

وعفاف الفرج: هو أن يعفَّ فرجه عن المحرمات والفواحش. وقد اشتدت الحاجة في هذا الزمان للتذكير به والتنويه بشأن أهله والتحذير من

(١) مسلم (٧١٢٤).

تدنيسه، والله المستعان.

ويتبع عفاف الفرج عفافُ رُسله كالسمع والبصر والكلام وغيرها. وفي الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمَمِ ممّا قال أبو هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الله كتب على ابن آدم حظَّهُ من الزِّنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمَنّى وتشتهي، والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه**»[1]. وتصديقه بالزنا، وتكذيبه بالعفاف عنه، وسيأتي بسط ذلك إن شاء الله تعالى.

(١) البخاري (٨/٦٧، ١٥٦)، و(مسلم) (٨/٥٢) بنحوه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شروطُ العفاف

العفافُ شعبةٌ عظيمة من شعب الإيمان، بل هو شطرُ الإيمان، فنصفُ الإيمان هو الكفُّ عمّا لا يجملُ من المؤمن، والنِّصفُ الآخرُ فِعْلُ الجميل، فالجميلُ هو كلُّ ما أحبّ الله تعالى وأَمَرَ به، والله جميل يحبّ الجمال، ومفهومُ الجمالِ واسعٌ في الشرع، وأجملُ الجمالِ جمالُ حسنِ الأخلاقِ مع الله تعالى بإحسان التديّن له. وضدّه كلّ ما لا يحبّه الله تعالى، وما نهى عنه.

فمعدِنُ العفافِ: الكفُّ عن كلِّ ما لم يأذن به الله تعالى. واعلم أنّ المتعفِّف لا يكون عفيفًا صحيحًا إلّا إن كان العقلُ هو الرّادعُ عمّا لا يجمل مع قدرته على تحصيله، أو على محاولة تحصيله، لكن يردعه صدقُ حارسِ النزاهة القلبيّة. وصحّة ذلك وشرط قبوله واستحقاق أجره كرمًا من الله تعالى إنما يكون بإخلاصه لله وجده، لا لغرض دنيا.

وقد ذكروا شرائطَ لصحة العفاف منها: «ألّا يكون تعفّفه عن الشيء انتظارًا لأكثر منه، أو لأنه لا يوافقه، أو لجمود شهوته، أو لاستشعار خوفٍ من عاقبته[١]، أو لأنه ممنوع من تناوله، أو لأنه غير عارف به لقصوره، فإنّ ذلك كله ليس بعفة، بل هو إما اصطياد، أو تطبّب، أو مرض، أو عجز، أو جهل، وترك ضبط النفس عن الشهوة أذمُّ من تركها عن الغضب، لأنّ سبع الغضب أشدُّ فتكًا، وأصعب مدافعة من تزيين الشهوة.

---

(١) أي: في دنياه لا دينه.

فالشهوة مغتالة مخادعة، والغضب مغالب، والمتحيّز عن قتال المخادع أردأُ حالًا من المتحيِّز عن قتال المغالب.

ولهذا قيل: عبدُ الشهوة أذلُّ من عبد الرِّقِّ، وأيضًا بالشَّرَه قد يجهل عيبه، فهو شبيه بأهل مدينة لهم سُنّة رديئة يتعاطونها، وهم يعرفون قبحها، وليس من تعاطى قبيحًا يعرفه كمن يتعاطاه وهو يظنه حسنًا» (١).

وبالجملة؛ فتحقيق العفّاف يكون بالحياء الراسخ في القلب من الله عز وجل، وهو ما يثمر على الجوارح ابتعاد المؤمن عن كل ما يخدش كمال عفافه في فرجه وبطنه وماله وقوله وعمله وبصره وسمعه ولمسه وبطشه وخطاه.

أساسُ العفّة وتمامها:

لا يكون الإنسان تامّ العفة حتى يكون عفيف اليد والبطن واللسان والسمع والبصر والفرج وما يتبع ذلك.

فمن خوارمها في اللسان: الرفثُ المحرم(٢)، وقد ساعدت وسائل التواصل الاجتماعي في هذا الزمن على تسهيله ونشر سبله، كذلك السخرية والتجسس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب، والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، وظلم اللسان للنفس أو الخلْق لا يمكن الإحاطة به ولكن يجمعها إطلاق اللسان في مرتع الحرام.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣١٩) بتصرف وزيادة.

(٢) الرفث: هو الكلام فيما يتعلق بالفروج وشهواتها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومما يجرحُ العفة في البصر: مدُّ العين إلى المحارم وزينة الحياة الدنيا المُولِّدة للشهوات الرديئة، ومن منقصاتها في السمع: الإصغاء إلى المسموعات القبيحة.

وعماد عفّة الجوارح كلها ألا يطلقها صاحبها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلا فيما يسوغه العقل والشرع، دون الشهوة والهوى(١).

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى في بيانِ أساسِ وتمامِ العفّة: «وأسُّها يتعلق: بضبط القلب عن التطلع للشهوات البدنية، وعن اعتقاد ما يكون جالبًا للبغي والعدوان.

وتمامها يتعلق: بحفظ الجوارح، فمن عدم عفة القلب يكون منه التمنِّي وسوء الظنِّ، اللذان هما أسُّ كلِّ رذيلة، لأن من تمنَّى ما في يد غيره حسده، وإذا حسده عاداه، وإذا عاداه نازعه، وإذا نازعه ربما قتله.

ومن أساء الظنَّ عادى وبغى وتعدّى، ولذلك نهى الله سبحانه عنهما جميعًا فقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ﴾ [النساء: ٣٢]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ [الحجرات: ١٢]، فأمر فيهما بقطع شجرتين يتفرع عنهما جلُّ الرذائل والمآثم»(٢).

---

(١) وانظر: الذريعة إلى مكارم الشريعة (٣١٩).

(٢) الذريعة (٣١٨)، عن نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٧ / ٢٨٧٥) بتصرف وزيادة.

فضل العفاف وضرورة المؤمن له

العفافُ برهانُ التقوى ودليلُ الاستقامة، فالدنيا بأسرها امتحانُ صبرٍ واختبارُ صدقٍ، فمن عفَّ وكفَّ وصبرَ لله تعالى على الاستقامة، فهو المؤمن حقًّا والفاضل صدقًا.

إنّ العفافَ ضرورةُ الزمان، لأنّنا نعيشُ زمانًا عاصفًا بكلّ المقاييس، فأبوابُ الشهوات المحرّمة مُتْرَعَةٌ على النفوس الغافلةِ بلا حسيب، مُشْرَعَةٌ على القلوب الضعيفة بلا رقيب؛ إلا مِن لَدُنْ علّامِ الغيوب تبارك وتعالى! فمن لم يكن له من ضميره ضاغطُ عفافٍ مَكِينٍ؛ أوشكَ أن يقع في سراديب وفِخَاخِ وشِبَاكِ الشيطان الرجيم. وبحمد الله العليِّ؛ فمَنْ توكّل على الله كفاه، ومن عفَّ بالله ولله؛ أعَفَّهُ الله!

إنّ العفافَ قيمةٌ حقيقةٌ بالتأكيدِ على كلُّ نطاقٍ وإلى كلِّ وجهه، فالسيل قد طمّ حتى أغرق زُبى الآساد، ولقد فُتحتْ على قلوب الناس شهواتٌ وشبهاتٌ أطاشتْ أحلامَ أولي الألبابِ، وحيَّرتْ بكَيْفِهَا وكَمِّها وتنوّعها واشتباهها أهلَ النُّهَى!

بل قد تسلّطت الشهوات على الشبهات حتى استبطنتها خُفْيَة! فصارت الشبهات سُلّمًا لبلوغ حظوظ النفس الأمارة بالسوء والفحشاء، ففي الأموال ضعف وازع الخوف من الربا ـ على سبيل المثال ـ بسبب اشتباه معاملات الحلال بالحرام، وساعد على ذلك فتاوى لمتفقّهة التيسير ـ زعموا ـ الذين يسوّغون للناس أبوابًا ما كان الشيطان يحلم بها في الزمن الأول! فابتدعوا للعامة

معاملات تدور هي والربا على رحى واحدة وتصدر من نبع سوء واحد، قد يقترب بعضها حتى يكون ربًا صريحًا أو يتأخر قليلًا بحسب حقيقته، لكنه لا يخرج من المشتبه المذموم.

ولا يعني هذا التعميم بحال لا بأوصاف ولا بأشخاص، فثم علماء أهل فضل وورع، وثمّ معاملات أحدثها الناس لا لبس فيها ولا اشتباه، إنما القصد تنبيه النبيه.

وفي الأنكحة اخترع الشيطان للناس طرقًا قذف زخرفها في قلوب بعضهم فروّجوها حتى اشتبه السفاح الذميم بالنكاح الشريف. وحتى لو خالفه في بعض صوره وشروطه لكنه باقٍ في قبيل المشتبهات.

وفي أمور السمع والبصر: وقع الناس في تساهلٍ غريبٍ وتسامحٍ قبيح في شأن حُرمةِ النظر والسمع في التلفاز، وأيضًا فيما يُسمّى بشبكات التّواصل الاجتماعي، فلقد أسقَطَتْ منكراتُ السمع والبصر لدى قلوب بعض أصحاب المبادئ والقيم والإيمان والعفاف كثيرًا من حواجز الهيبة والتقوى والورع، فيمرُّ مقطعٌ يحوي معازف في نشرة أخبار أو مناظر جميلة أو غيرها، بل أحيانًا في موعظة! وكذا غناءٌ محرمٌ، فلا يخفض الصوت، أو صورة امرأة متبرجة ولا يغضّ بصره عن الحرام، فيبدأ السمُّ الشيطاني والمكر الإبليسي في نخرِ حصانةِ القلب من داخِلِهِ، فيستسيغُ المنكر شيئًا فشيئًا، ويقبله ويصاحبه ويواليه بعدما كان عنه بعيدًا محاربًا مشمئزًّا كارهًا قالِيًا. وكما قيل: كثرةُ الإمساسُ تُميت الإحساس، وأعظمُ من ذلك قولُ ربِّ العزّة تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ

خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾﴾ [النور: ٢١]. فيبدأ بخطوةٍ لا يُنتبهُ لخطرها، فيمشي بالعبد في الباطل بعد الخطوة خطواتٍ وأميالًا، ويخوض بقلبه في الغفلة أعوامًا وأعوامًا، حتى يصيح بحسرة الفَوَات يوم التغابن، ولقد حذّرَنَا ربُّنَا في القرآن أربع مرّات من خُطُوَات العدوِّ المُبين، في البقرة في موضعين وفي الأنعام والنور، أعاذنا الله جميعًا منه. وتأمل الحديث الربّاني في بيان المحجّة القاطعة لكلِّ مُسَوِّفٍ ومُؤجِّلٍ ولاعبٍ ومُرتاب، فعن أبي ذر الغِفاري رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ عن رَبِّ العِزَّةِ جَلَّجَلَالُهُ أَنَّهُ قال: **«يا عِبَادِي؛ إنَّمَا هيَ أعمَالُكُمْ، أُحصِيهَا لكُمْ ثمَّ أُوَفِّيكُمْ إيَّاها؛ فمَن وَجَدَ خيرًا؛ فَليَحمَدِ الله، ومَنْ وجَدَ غيرَ ذلك؛ فلا يَلومَنَّ إلّا نفسَه»**(١).

وتدبّر حالَ الذين أخَذُوا أمرَهُم سَبهْلَلًا ودينَهُم لهوًا ولعبًا؛ فَبِغتَهُمُ الحقُّ مِن حيثُ لا يشعرون، ولَكَمْ حذَّرَنَا ربُّنَا تعالى في القرآن العظيم مِن حالهم، وأنذرنا مآلَهُمْ، فقال تبارك وتعالى في شأن أولئك الهلكى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأعراف: ٥١]. فالحذر الحذر، والوَحَا الوَحَا!

والمقصود؛ أنّ العبدَ إذا استمرأَ المشتبهَ والمكروهَ؛ سَهُلَ عليه خوضُ الحرام

---

(١) مسلم (٢٥٧٧).

الصريح، ذلك أنّ ثوبَ الإيمان يتقلّصُ عن المؤمن شيئًا فشيئًا مع كثرة اختلاط المشتبهات ودوران المكروهات وتردّد النّزغات في قلبه، فينقص الإيمان حتى لا يطيق مدافعة الباطل ولا مجاهدة الأمَّارة! فهنالك عقرُه وكسرُه وخسارُه وخيبته إن لم يتداركه ربّه بلطف منه وعون وغوث ورحمة.

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شُبَهٍ ارتضعت لَبَانَ الشهوات، فصار دين بعضهم شهوة سلطانه بلسان حاله فأشبهوا إمامية الرفض وطُرُقية الخرافة.

وفي أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقتار الغفلة ما لا يكاد يُحصى تنظيرًا وتطبيقًا؛ لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة جدًّا في هذا الزمان الشاق، والله لا يخلف الميعاد.

إنّ العفيفَ سيّدُ نفسِهِ، غير مستعبَدٍ لهواه وطمعه، بل قد علّق ناصية عبادته على وفق شرع ربّه الأعلى، وكلَّما هبّتْ على نفسه عواصفُ الشهوات؛ ثَبَتَ به العفافُ الراسخ في قلبه كالجبل الأشمّ، فيا شيطانَ الريحِ قد لاقيتَ إعصارَ الإيمان، فيسمو المؤمن العفيف ببصيرته صُعُدًا في مراقي الفلاح، يتنسَّمُ وحيَ ربِّه، فيتسنَّمُ سبيلَ رضوانه.

قلبُهُ العامر بالغِنَى بربه كفاه عفافًا عما سواه، كان في بداية أمره يجاهد نفسه الأمّارة، حتى رقّاها لتكون لوّامة، فما زال بها حتى اطمأنت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أنّ الغِنى ـ كلَّ الغنى ـ في الاستعفاف عما لا يحلّ؛ فكانت من المفلحين. حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلّفه من حطامٍ وبهرج وزيفٍ

وخداعٍ وأحابيل، ثم أشاح عن كل ذلك عازمًا على لزوم ذلك المنهج النقيّ القويم، وأيّ منهج؟! إنه سبيل الله تعالى وصراطه ودينه ورضوانه.

يقرأ قول ربِّه الحاضّ على لزوم طريق العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح، وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠]، فغض البصر يسبقه غض القلب عن خطرات الحرام، فيثمر منه حفظ الفرج وصيانته.

ولقد قال سبحانه آمرًا أمرًا حاسمًا جازمًا قاطعًا لكل تسويل باطل وتسويغ ذريعته: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٣]، فعليهم العفاف، ومن الله لهم الغنى.

والفقر ليس بعذر في الخطيئة: ﴿وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]، وقد تكفَّل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا ﷺ بوعد الله تعالى للمتعففين، وهو الوعد الذي أحقّه على نفسه كرمًا وامتنانًا وهو لا يخلف الميعاد.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ حقٌّ على الله عونُهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريدُ الأداء، والناكحُ الذي يريدُ**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

العَفَاف»[١]. فأين من يشتكي لهيب الشهوة وسعار الغريزة عن هذا الوعد الإلهي والمكرمة الإلهية بالمدد والمعونة؟!

وإنّ المؤمن الموفق في مسيره لربه تعالى ليتذكَّر سلَفَهُ الأَعِفَّة كالنبي الصدِّيق الذي رمى كل شهوة الدنيا خلف ظهره صارخًا في وجه الهوى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فلله درُّه من إمام من أئمة العفيفين، فحينما أحاطته مغريات الشهوة من شباب يافع وجمال وغربة مع مراودة السيدة الجميلة له؛ اعتصم بحصن العفاف العاطر المصون: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٣، ٢٤].

حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقائه وصدق توحيده؛ فصرف حفرة الغفلة وجحيم الشهوة المحرمة عنه عليه السلام، فشأن أهل الإخلاص ليس كشأن المخلّطين، والحمد لله رب العالمين.

لقد كانت العفة محورًا من محاور دعوة النبي العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه، فلقد كان العفاف حاضرًا في حياته يفعله قبل قوله، فهو

---

(١) الترمذي (١٦٥٥) واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن، والنسائي (٦/ ٦١)، وابن حبان في صحيحه»، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم (٣/ ٤٣).

من كان العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظلوم، فقد كان هو الصادق الأمين، والأمين هو المستأمَن على كل ما يخشى عليه تلف الاستطالة من دم أو عرض أو مال.

لقد كان العفافُ من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان الأمر به واضحًا جليًّا صريحًا من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهرقل حينما سأله عن أوامر رسول الله ﷺ، ففي حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في شأن كلام هرقل لأبي سفيان ومن معه من رجالات قريش، وفيه: «قال: فماذا يأمركم به؟ قال: يأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وينهانا عما كان يعبد آباؤنا، ويأمرنا بالصلاة، والصدقة، والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة ... وسألتك هل قاتلتموه وقاتلكم؟ فزعمت أن قد فعل، وأنّ حربكم وحربه تكون دُوَلًا، ويُدال عليكم المرّة، وتدالون عليه الأخرى، وكذلك الرسل تُبْتَلَى وتكون لها العاقبة. وسألتك بماذا يأمركم؟

فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم، ويأمركم بالصلاة، والصدق والعفاف، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة... الحديث»(١).

والعفيفُ غنيٌّ بقناعته وطيب نفسه وانشراح صدره، فعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أربعٌ إذا كنَّ فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا: حفظُ أمانة، وصدقُ حديث، وحسنُ خَلِيقَةٍ، وعِفَّةٌ في**

(١) البخاري، الفتح (٦/ ٢٩٤١) واللفظ له. ومسلم (١٧٧٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

طعمة»(١).

لقد كان العفيف الأكبر صلوات الله وسلامه وبركاته عليه يُعلي قيمةَ العفافِ، ويُثنى على الناس بها، إذْ كان العفاف من معايير الإيمان لديه، فعن أبي طلحة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أقرئ قومك السلام، فإنّهم ما علمت أعفَّة صُبر**»(٢).

وتأمل حديث عياض بن حمار المجاشعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أوصاف أهل الجنة وأهل النار، وكيف كان العفاف ظاهرًا جليًّا معتَبرًا ويكأنه الميزان لغيره من الخصال، فحدَّث أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إنّ ربي أمرني أن أعلّمكم ما جهلتم مما علّمني يومي هذا**».

وقال: «**وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدّق موفّق، ورجل رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيفٌ ذو عيال**». قال: «**وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له(٣)، الذين هُمْ فيكم تبعًا لا يتبعون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دقَّ إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي**

---

(١) أحمد (٢/ ١٧٧) (٦٦٦١) واللفظ له، وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠/ ١٣٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٠١) (٨٨٦).

(٢) الترمذي (٣٩٠٣) واللفظ له، وقال: حسن غريب. وأحمد (٣/ ١٥٠)، والحاكم (٤٨٠) وصححه، وأقره الذهبي.

(٣) **«لا زَبْرَ له»**: أي لا عقل له يزبره، ويمنعه مما لا ينبغي.

إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك». وذكر البخل أو الكذب. «**والشّنظير**[١] **الفحّاش**»[٢].

وحتى عند أعنف أمرٍ وهو القتل، فعفاف المؤمن حاضر هنالك، فلا يتعدّى ولا يُمَثِّلُ فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**أعفُّ الناس قتلة: أهلُ الإيمان**»[٣].

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى: «**اللّٰهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغِنى**»[٤].

وعن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**بُرُّوا آباءَكم تبرُّكُمْ أبناؤكم، وعفّوا تعفُّ نساؤكم**»[٥].

وأهل العفاف موعودون بالجنة؛ فعن عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم؛ أضمن لكم الجنة: اصدقوا**

(١) الشنظير: السيء الخلق، والذي يقول الكلام المستفحش.
(٢) مسلم (٢٨٦٥).
(٣) أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١/ ٣٩٣) (٣٧٢٧)، وقال شاكر: إسناده صحيح (٥/ ٢٧٥).
(٤) مسلم من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٢٧٢١).
(٥) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٣١٨) وقال: رواه الطبراني بإسناد حسن. وقال: رواه أيضًا هو وغيره من حديث عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا. عن: «نضرة النعيم (٧ / ٢٨٧٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إذا حدّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا ائتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم»(١).

وتأمل منزلة العفيف عند ربه حيث أكرمه بإظلاله يوم لا ظلّ إلا ظله، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**سبعةٌ يظلّهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظله**: ـ ومنهم ـ **رجلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله**»(٢).

وهو من أعظم أسباب الغفران فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو لم أسمعه إلا مرّة أو مرتين حتى عدّ سبع مرات ما حدثت به، ولكن سمعته أكثر من ذلك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كان الكِفْلُ من بني إسرائيل لا يتورّع من ذنب عمله، فأتته امرأةٌ فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت. فقال: ما يبكيك؟ قالت: لأنَّ هذا عمل ما عملته، وما حملني عليه إلا الحاجة! فقال: تفعلين أنت هذا من مخافة الله تعالى، فأنا أحرى، اذهبي فلك ما أعطيتك، ووالله لا أعصيه بعدها أبدًا، فمات من ليلته، فأصبح مكتوبًا على بابه: إنّ الله قد غفر للكفل. فعجب الناس من ذلك**»(٣).

---

(١) أحمد (٥/ ٣٢٣) واللفظ له. والحاكم وصححه (٣/ ٣٥)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (١/ ٣٣٩) (١٠٢٩).

(٢) البخاري مع «الفتح (٣/ ١٤٢٣)، ومسلم (١٠٣١) واللفظ له.

(٣) الترمذي (٢٤٩٦)، وقال: هذا حديث حسن. وأحمد (٢/ ٢٣)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح (٦/ ٣٣٤) رقم (٤٧٤٧). والحاكم (٤/ ٢٥٤، ٢٥٥)، وقال: =

والعفيف موعود على لسان نبيه ﷺ بالجنة، فعن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: «**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه؛ أضمن له الجنة**»(١). وأخسِر بصفقة من باع جنة عرضها الأرض والسماوات بلحظة زللِ لسانٍ أو فَرْجٍ.

وانظر كيف مدح فقراء المهاجرين بالعفاف التام، فلا يعلم بحاجة أحدهم أحد حتى يلقى الله، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيأتي أناس من أمتي يوم القيامة نورهم كضوء الشمس**». قلنا: من أولئك يا رسول الله؟ فقال: «**فقراء المهاجرين الذين تُتّقى بهم المكاره، يموت أحدهم وحاجته في صدره، يحشرون من أقطار الأرض**»(٢).

وقال سبحانه مادحًا عباده المتعففين: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، أي يحسبهم الْجَاهِلُ بحالهم أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ، أي: من تعففهم عن السؤال وقناعتهم يظن من لا يعرف حالهم أنهم أغنياء، والتعفف: التفعُّل من العفة، وهي الترك يقال: عفَّ عن الشيء إذا كف عنه، وتعفف إذا تكلف في الإمساك.

صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(١) البخاري مع الفتح (١١/ ٦٤٧٤).

(٢) أحمد (٢/ ١٧٧)، وقال شاكر: إسناده صحيح (١٠/ ١٣٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾: السِّيماء والسِّيمياء والسِّمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها هاهنا، فقال مجاهد: هي التخشع والتواضع، وقال السُّدي: أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقال الضحاك: صفرة ألوانهم من الجوع والضر، وقيل: رثاثة ثيابهم.

﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾: قال عطاء: «إذا كان عندهم غداء لا يسألون عشاءً، وإذا كان عندهم عشاء لا يسألون غداءً»، وقيل: «معناه: لا يسألون الناس إلحافًا أصلًا لأنه قال: من التعفف، والتعفف ترك السؤال»(١).

واعلم أنّ من أعظم أسباب تحصيل العفاف: صدق الدعاء والثقة بالعطاء وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا، والعطاء أحب إليه من المنع، ويفرح إن دُعي وسُئل واستُعين واستُغيث واستُنصِر واستُغنِي.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رجلٌ على أهله، فلما رأى ما بهم من الحاجة خرج إلى البرية، فلما رأتْ امرأته قامت إلى الرَّحَى فوضعتها، وإلى التنور فسجّرَته، ثم قالت: اللّهم ارزقنا، فنظرت فإذا الجفنة قد امتلأت، قال: وذهبت إلى التنور فوجدته ممتلئًا!

قال: فرجع الزوج، قال: أصبتم بعدي شيئًا؟ قالت امرأته: نعم، مِنْ ربِّنا. وقام إلى الرَّحَى فرفعها.

فذُكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**أما إنه لو لم يرفعها لم تزل تدور إلى يوم**

(١) معالم التنزيل» للبغوي (١/ ٣٣٨).

القيامة».

وشهدتُ النبيَّ ﷺ وهو يقول: «**والله لأن يأتي أحدكم صبيرًا**[(١)] **يحمله يبيعه فيستعفَّ منه، خير له من أن يأتي رجلًا يسأله**»[(٢)].

---

(١) للصبير عدة معان، ولعلّ المراد هنا الجبل، والغرض التهويل من شأن المسألة، والله أعلم. وانظر: تاج العروس من جواهر القاموس (١٢ / ٢٧٤).

(٢) أحمد (٢/ ٥١٣) (١٦٦٩). وصححه الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٥٩/١٠)، وصححه الألباني في الصحيحة (٦ / ١٠٥٢)، وقال مقبل الوادعي في الصحيح مما ليس في الصحيحين ٤٤٧/١: «هذا حديث صحيحٌ، رجاله رجال الصحيح».

وعند أحمد أيضًا (٢/ ٤٢١) عن طريق شهر بن حوشب قال: قال أبو هريرة: بينما رجل وامرأة له في السلف الخالي لا يقدران على شيء؛ فجاء الرجل من سفره، فدخل على امرأته جائعًا قد أصابته مسغبة شديدة، فقال لامرأته: أعندكِ شيءٌ؟ قالت: نعم؛ أبشر، أتاكَ رزقُ اللهِ! فاستحثَّهَا فقال: ويحك! ابتغي إن كان عندك شيء، قالت: نعم، هُنيَّة نرجو رحمة الله، حتى إذا طال عليه الطوى قال: ويحك! قومي فابتغي إن كان عندك خبز فأتيني به؛ فإني قد بلغتُ وجهدت! فقالت: نعم، الآن ينضج التنور فلا تعجل، فلما إذ سكت عنها ساعة، وتحيَّنت أيضًا أن يقول لها؛ قالت هي من عند نفسها: لو قمت فنظرت إلى تنوري، فقامت فوجدت تنورها ملآن جنوب الغنم، ورحييها تطحنان!

فقامت إلى الرحى، فنفضتها وأخرجت ما في تنورها من جنوب الغنم. قال أبو هريرة: فوالذي نفس أبي القاسم بيده عن قول محمد ﷺ: «**لو أخذت ما في رحييها ولم تنفضها؛ لطحنتها إلى يوم القيامة**» وشهر بن حوشب ضعيف. والمسغبة: الجوع. وقوله: «فاستحثها»؛ أي: طلب منها بسرعة. وقولها: «هُنيَّة» بالتصغير، أي: اصبر =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والعفاف حاضر حتى في أخذ الحقوق من الغرماء، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال لصاحب الحقِّ: «**خُذْ حقَّكَ في عفافٍ وافٍ، أو غير وافٍ**»(١). أي: مستوفٍ حقّك كلّه، أو واضعًا بعضه كرمًا وإحسانًا.

وتأمّل تعفّف صحابة رسول الله ﷺ وتعظيمهم لحدود الله تعالى، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سرَّحتني(٢) أمي إلى رسول الله ﷺ، فأتيتُه وقعدتُّ، فاستقبلَني وقال: «**من استغنى أغناه الله عز وجل، ومن استعفَّ أعفَّهُ الله عز وجل، ومن استكفى كفاه الله عز وجل، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد**

وانتظر قليلًا. «رحيبها» تثنية الرحى، والمراد الطرفان. وفي الحديث دليل على مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات كرامات الأولياء والصالحين، وعلى استجابة الله تعالى دعاء عباده المؤمنين من حيث لا يحتسبون، وأنّ من توكّل على الله كفاه، ومَن أحسنَ به الظنّ؛ كان أفضل لديه من حسن ظنه، فليظنّ العبد بربه ما شاء مع حسن الرجاء والاجتهاد في العمل.

(١) ابن ماجه (٢٤٢٢)، وقال في الزوائد»: هذا إسناد صحيح رجاله ثقات على شرط مسلم. ورواه ابن حبان في صحيحه. وذكره الألباني (٢/ ٥٤)، وقال: حسن صحيح. وفي السنن الكبرى للبيهقي مع ذيله (٦ / ٥٣) تفسير ذلك، فإنه لما سئل عنه قال: «مستوف حقه أو تارك بعضه».

(٢) أي بعثتني في الصبح لأسأله من متاع الدنيا بلاغًا.

أَلْحَفَ(١)»، فقلت: ناقتي الياقوتة خير من أوقية. فرجعت ولم أسأله»(٢).

وأكرِم بهذه البشارة النبوية للمتعففين؛ فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عُرض عليَّ أولُ ثلاثة يدخلون الجنة: شهيدٌ، وعفيفٌ متعفِّفٌ، وعبدٌ أحسنَ عبادة الله ونصح لمواليه**»(٣). فهو يزيد عفافه بتعففه، وفي هذا معنى الاستمرار والمجاهدة لنزغات الشيطان والحراسة للقلب من دغيلةٍ تخدش عفافه.

فتأمل كيف وصفه بالعفاف والتعفف، ذلك أنّ النفس مهما كانت سامية عن الدنايا فإنه لا يزال يعرض لها ما يكاد يصرفها عن استقامتها، فكان العبد في حاجة دائمة للمجاهدة بالتعفف.

وفيه أيضًا إشارة إلى البحث عن المتعفِّفين وسدِّ خلّتهم، أما السائل فلن يُعدم صدقة الناس، ومن هنا قال رسول الله ﷺ: «**ليس المسكين الذي تردّه التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنّما المسكين الذي يتعفَّف. اقرؤا إن**

---

(١) ألحف في السؤال: أي ألح وأسرف من غير حاجة، وفي التنزيل: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣].

(٢) النسائي (٥/ ٩٨) واللفظ له، وقال الألباني: حسن صحيح (٢/ ٥٤٩) (٢٤٣٢). وأبو داود (١٦٢٨).

(٣) الترمذي (١٦٤٢)، وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٢/ ٤٢٥)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٨/ ١٣٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شئتم: يعني قوله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣]»(١).

وكان يحضُّ على العفاف حتى لمن كان محتاجًا، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: «إنّ ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم. حتى إذا نفد ما عنده. قال: «**ما يكُنْ عندي مِن خيرٍ فلن أدَّخرَهُ عنكم، ومَن يستعفف يُعِفُّه الله، ومَن يستغن يُغنه الله، ومَن يتصبَّر يصبِّره الله. وما أعطي أحدٌ من عطاءً خيرًا وأوسعَ من الصبر**»(٢).

قال ابن عبد البر: «فيه الحضّ على التعفّف والاستغناء بالله عن عباده، والتصبّر، وأنَّ ذلك أفضل ما أعطيه الإنسان، وفي هذا كلِّه نهيٌ عن السؤال، وأمرٌ بالقناعة والصبر»(٣).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال وهو على المنبر، وهو يذكر الصدقةَ والتعفّفَ عن المسألة: «**اليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى. واليدُ العليا المنفقة، والسفلى السائلة**»(٤).

وتأمل كيف صيَّرَ اللهُ الكريمُ سبحانه النفقة على النفس ـ وهي شهوة نفسانية جسدية ـ صدقةً شرط نيّة الاستعفاف، فعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أنفق على نفسه نفقة يستعفُّ بها فهي صدقة، ومن أنفق**

(١) البخاري مع «الفتح (٨/ ٤٥٣٩) واللفظ له. ومسلم (١٠٣٩).
(٢) البخاري مع «الفتح (٣/ ١٤٦٩). ومسلم (١٠٥٣) واللفظ له.
(٣) التمهيد (١٠/ ١٣٣).
(٤) البخاري مع «الفتح (٣/ ١٤٢٩)، ومسلم (١٠٣٣) واللفظ له.

على امرأته وولده وأهل بيته فهي صدقة»(١).

وبالجملة؛ فالعفاف خُلُقٌ يسمو بالنفس جدًّا، ويرفعها، وينزّهُها عن الإهانة والمذلّة حتى مع ضيق ذات اليد، ولا بدّ للعفيف من قناعة تُبْرِدُ لَوَاعِجَ حاجته، وتُشْبِعُ نهمَةَ فَاقَتِهِ. ولله أبي الحسن النعيمي إذ يقول:

إِذَا أَظْمَأَتْكَ أَكُفُّ اللِّئَام ... كَفَتْكَ القَنَاعَةُ شِبْعًا وَرِيَّا
فَكُنْ رَجُلًا رِجْلُهُ فِي الثَّرَى ... وَهَامَةُ هِمَّتِهِ فِي الثُّرَيَّا
أَبِيًّا لِنَائِلِ ذِي ثَرْوَةٍ ... تَرَاهُ بِمَا فِي يَدَيْهِ أَبِيَّا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الحَيَاة ... دُوْنَ إِرَاقَةِ مَاءِ المُحَيَّا(٢)

هذا ويتأكد العفاف جدًّا ـ بمعناه العام ـ في أزمنة المجاعات أو الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل ويستطيل البشر في الدماء والأموال والأعراض، وهو حديث عزيز جدًّا حريّ بنشره وإشهاره، فعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ركب رسول الله ﷺ حمارًا وأردفني خلفه وقال: «**يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع؟**»، قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**تعفَّف**».

قال: «**يا أبا ذر، أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبد ـ يعني القبر ـ كيف تصنع؟**». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**اصبر**».

---

(١) قال المنذري في الترغيب والترهيب»: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما حسن (٣/ ٦٢). عن: «نضرة النعيم (٧/ ٢٨٨١).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٧/ ٤٤٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال: «**يا أباذر، أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة الزيت**[١] **كيف تصنع؟**». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك**».

قال: فإن لم أُتْرَك؟ قال: «**فائت من أنت منهم**[٢] **فكن فيهم**». قال: فآخذ سلاحي؟ قال: «**إذًا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف**[٣] **فألقِ طرف ردائك على وجهك حتى يبوء بإثمه وإثمك**»[٤].

إذن فمن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

---

(١) حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة سمى بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنما طليت بالزيت، والمراد: أن الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتلى. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد من الدماء.

(٢) أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.

(٣) أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقاتل فغطِّ وجهك حتى يقتلك فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاص في أزمنة الفتن أما في غيرها فالمدافعة هي السنة لما رواه مسلم (١/ ٨٧) (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «**فلا تعطه مالك**»، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: «**قاتله**»، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: «**فأنت شهيد**»، قال: أرأيت إن قتلتُه؟ قال: «**هو في النار**».

(٤) أبو داود (٤٢٦١)، وصححه الألباني (٣/ ٨٠٣)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، والحاكم (٤/ ٤٢٤)، وأحمد (٥/ ١٤٩، ١٦٣) واللفظ له.

وهاتِكَ لفتةً عظيمة جميلة في شأن العفاف، وهي أن المرء في سيره لإعفاف نفسه ومن يعول، فهو مكتوب من أهل سبيل الله تعالى، فعن كعب بن عجرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه.

فقالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله؟[١] فقال رسول الله ﷺ: «**إن كان خرج يسعى على ولده[٢] صغارًا[٣] فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل**

---

(١) قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله تعالى، وضنِّهم بأشدّاء الرجال إلّا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعِزُّوا بها دين الله ربِّ العالمين، فأرشدهم ﷺ بلطفه المعهود إلى أنّ فضلَ الله تعالى واسعٌ، وأن سبيله يشمل من كان ساعيًا في شأن عفافه وعفاف عياله، فمفهومُ سبيلِ الله تعالى واسعٌ في الشَّرع الطّهور.

(٢) الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ﴾ [النساء: ١١].

(٣) يتبع الصغار من كان في حكمهم لمرضه أو إعاقته ونحو ذلك، وخصهم بالذكر إخراجًا للأقوياء من الأولاد، حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الشيطان[١]»[٢].

هذا؛ وإنّ العفافَ الخالصَ لله عز وجل لهو من أكبر أسباب كشف الكربات بإذن الله تعالى، فتعرّف إلى الله في الرخاء؛ يعرفْكَ في الشدّة.

وتأمل حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، قال أحدهم بإخلاص: «**اللّهم إنّه كانت لي ابنة عمٍّ، أحببتها كأشد ما يحبّ الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها. فأبت حتى آتيها بمئة دينار. فتعبت حتى جمعت مئة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها، قالت: يا عبد الله، اتق الله، ولا تفتح الخاتم إلا بحقّه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج لنا منها فرجة، ففرّجَ لهم ..**» الحديث[٣].

والعفاف سبب للنجاة غدًا برحمة الله تعالى، وبخاصة في زمننا الشديد، زمنِ الشهوات المحرمة التي تيسّرت أسبابُها، وتنادى إليها بالهلاكِ خُطّابُها، فعن معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا ترى أعينهم النار: عينٌ حرست في سبيل الله، وعينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ كفّت عن**

---

(١) فالاعتبار إنما هو بالنيات. ورُبَّ نية سبقت عملًا، وكم من عمل صغير عظّمته النيةُ، وكبّره القصد.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ١٢٩)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٦٣).

(٣) البخاري مع «الفتح (٦/ ٣٤٦٥). ومسلم (٢٧٤٣) واللفظ له.

محارم الله» [١].

وعفاف الوجه مِن كِرامة نفس صاحبه، فالمؤمن عزيزُ النفس شريف القدر مهما عضّته أنيابُ الحاجات، ولكن ليُعلم أنّ قَبولَ العطيَّة التي لا مدخل منها لمذلة ولا تعلُّق للنفس بها لا حرج منها، فعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قد كان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني. حتى أعطاني مرّة مالًا. فقلت: أعطه أفقر إليه مني. فقال رسول الله ﷺ: «**خذه، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف، ولا سائل فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك**»[٢].

والمُشْرِفُ: هو المتطلّع المتشوِّفُ للعطية، إنما المؤمن يأخذها بسماحة، وطيب خاطر، لا بحرص، ولا هلع، ولا جزع.

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سألت النبي ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**إن هذا المال خَضِرَةٌ حلوة، فمن أخذه بطيب نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس**[٣] **لم يبارَك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»[٤].

---

(١) ذكره الدمياطي في المتجر الرابح (١٨٨٧) وقال: رواه الطبراني ولا بأس بإسناده إن شاء الله. وصححه الذهبي في التلخيص، والألباني في الصحيحة (٢٦٧٣).

(٢) البخاري مع «الفتح (١٣/ ٧١٦٤). ومسلم (١٠٤٥) واللفظ له.

(٣) بإشراف نفس: أي بتطلع وطمع فيه.

(٤) البخاري مع الفتح (٣/ ١٤٧٢). مسلم (١٠٣٥) واللفظ له. وفيه عند الطبراني: **«ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله»**. وقال الهيثمي في المجمع»: رواه =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذا وعفيف البطن موعود بالفلاح، ولفظ الفلاح هو أشمل لفظٍ لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**قد أفلح من أسلم، ورزق كفافًا، وقنَّعه الله بما آتاه**»(١).

فسِرُّ العفاف إذن هو القناعة!

والعفاف عن سؤال الناس تكثُّرًا وسيلةٌ للسلامة من العذاب غدًا بإذن الله، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنّ رجلًا من الأنصار أتى النبي ﷺ يسأله، فقال: «**أما في بيتك شيء؟**» قال: بلى. حِلْسٌ(٢) نلبسُ بعضه، ونبسط بعضه، وقَعْبٌ(٣) نشرب فيه من الماء. قال: «**ائتني بهما**». فأتاه بهما، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده، وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا آخذهما بدرهم، قال: «**من يزيد على درهم؟**» مرتين أو ثلاثًا، قال رجل: أنا آخذهما بدرهمين فأعطاهما إياه، وأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصاري، وقال: «**اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك، واشتر بالآخر قدُّوما فأتني به**»، فأتاه به، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال له: «**اذهب فاحتطب وبع، ولا أرينّك خمسة عشر يومًا**»(٤).

الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح (٣/ ٩٨).

(١) مسلم (١٠٥٤).

(٢) كساء غليظ يكون على ظهر البعير تحت القَتَبِ، وسمّي به غيره مما يُداس ويمتهن من الأكسية ونحوها.

(٣) أي: قدح.

(٤) وتأمل جدِّية التربية النبوية.

فذهب الرجل يحتطب ويبيع، فجاء وقد أصاب عشرة دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا، فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتةٌ في وجهك يوم القيامة، إنّ المسألة لا تصلح إلا لثلاثة: لذي فقر مُدْقِعٍ، أو لذي غُرْمٍ مُفْظِعٍ، أو لذي دَمٍ مُوْجِعٍ**»(١).

لا تخضعنَّ لمخلوقٍ على طمعٍ ... فإنَّ ذلك نقصٌ منكَ في الدِّينِ
لن يقدرَ العبدُ أن يعطيَك خَرْدلةً ... إلّا بإذنِ الذي سوَّاك مِن طينِ
فلا تصاحبْ غنيًّا تستعزُّ به ... وكن عفيفًا وعظِّمْ حُرمةَ الدِّينِ
واسترزقِ اللهَ ممَّا في خزائنِه ... فإنَّ رزقَك بينَ الكافِ والنُّونِ(٢)

إنّ العفاف كمال ومروءة وجمال، قال محمد بن الحنفية رحمه الله تعالى: «الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة»(٣). وقال سفيان الثوري رحمه الله تعالى لأصحابه وقد خرجوا يوم

---

(١) أبو داود (١٦٤١) واللفظ له، وقد سكت عنه. وقد قال في رسالته لأهل مكة: «كل ما سكتُّ عنه فهو صالح». والترمذي (١٢١٨) وقال: حسن. والنسائي (٧/ ٢٥٩)، وابن ماجه (٢١٩٨)، وأحمد (١٢١٣٤)، وقال الألباني في ضعيف الجامع (٨٢٧): «ضعيف، دون قوله: **«إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث ...»** إلخ. فصحيح. وبمثله قال شعيب الأرناؤوط في تخريج سنن أبي داود (١٦٤١).

(٢) يقصد الشاعر ببينيَّة الرزق بين الكاف والنون: ضمانه وسرعته، وهذا من التجوُّز، ولو أنه قال: بعد الكاف والنون لأصاب. ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فعقَّب بالفاء بعد أمرِه كن.

(٣) أدب الدنيا والدين (٣٩٣، ٣٩٤).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عيد: «إنّ أول ما نبدأ به في يومنا عِفّةُ أبصارنا»(١).

وتأمل جمال الإسلام ببياض ثياب عفافه، قال أبو عمرو بن العلاء رحمه الله تعالى: «كان أهل الجاهلية لا يسوِّدون(٢) إلا من كانت فيه ست خصال، وتمامها في الإسلام سابعة: السخاء، والنجدة، والصبر، والحلم، والبيان، والحسب، وفي الإسلام زيادة العفاف»(٣).

ويتأكد العفاف في أهل العلم أكثر من غيرهم، إذ حُرمة العلم وشرفُهُ لِبَاسٌ لا ينبغي تدنيسه مِن لابسه، قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «العالِم إذا كان عليمًا ولم يكن عفيفًا؛ كان ضررُه أشدّ من ضرر الجاهل»(٤). قلت: وهو مُشاهد معلوم، فإنّ الناس بطيبهم يأمنون جانب مظهر التنسّك أو العلم والإيمان، فإذا خانهم مِن جانبهم الآمن الذي ائتمنوه لشرف علمه ودينه؛ كانت خيانته أشدُّ وأشنعُ وأقبحُ!

ولقد كان السلف يعظّمون شأن العفاف جدًّا لما يعلمون من شرف أهله وفضلهم، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة، ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف»(٥).

---

(١) الورع، لابن أبي الدنيا (٦٣).

(٢) من السيادة.

(٣) الآداب الشرعية (٢/ ٢١٥).

(٤) الفتح (١٣/ ١٤٩).

(٥) العقد الفريد، لابن عبد ربه (٢/ ١٥٠).

وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو على المنبر: «لا تُكلّفوا الأَمَةَ غير ذات الصنعة الكسب؛ فإنّكم متى كلّفتموها ذلك كسبت بفرجها، ولا تكلّفوا الصغير الكسب؛ فإنه إذا لم يجد يسرق، وعفُّوا إذا أعفَّكم الله، وعليكم من المطاعم بما طاب منها»(١).

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «نحن معشر قريش نَعُدُّ الحلم والجود السؤدد، ونَعُدُّ العفاف وإصلاح المال المروءة»(٢).

وقدم وفد على معاوية فقال لهم: «ما تَعُدُّون المروءة؟ قالوا: العفاف وإصلاح المعيشة، قال: اسمع يا يزيد»(٣).

وقال محمد بن الحنفية: «الكمال في ثلاثة: العفة في الدين، والصبر على النوائب، وحسن التدبير في المعيشة»(٤).

وقال أيوب السختياني: «لا ينبُل(٥) الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عن أموال الناس، والتجاوز عنهم»(٦).

وقال الحسن البصري: «لا يزال الرجل كريمًا على الناس حتى يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك استخفوا به، وكرهوا حديثه وأبغضوه».

---

(١) الموطأ (٤٢).
(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح الحنبلي (٢/٢١٥).
(٣) العقد الفريد (٢/١٥٠).
(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (٣٢٩).
(٥) من النبل وهو الكرامة والشهامة وعلوّ الرتبة.
(٦) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني (٣١٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قلت: تصديق ذلك في حديث أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس يحبك الناس**»(١).

ذلك أن المال عزيز بأيدي أصحابه، ولا يهون عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع الضواري: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠]، فكما أنه يهمّهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم ويروقهم حفظه، فالشّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه قَلوه وأبغضوه إلا من سخت نفسه منهم لأمر خارج عن ذلك؛ كزهد، أو غياث، أو تحبّب، أو صدقة، ونحو تلك الرغائب.

فأقل الناس أهلُ القناعة، وأقلُ قليلهم أهل الزهادة!

تقنَّع بالكفافِ تعشْ رخيًّا ... ولا تبغِ الفضولَ مِن الكفافِ
ففي خبزِ القفارِ بغيرِ أُدْمٍ ... وفي ماءِ القِراحِ غنًى وكافِ
وفي الثوب المرقَّع ما يُغطَّى ... به مِن كلِّ عُرِيٍ وانكشافِ
وكلُّ تزيُّنٍ بالمرءِ زينٌ ... وأزينُه التزيُّنُ بالعفافِ

وعن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله**

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢)، والحاكم (٣١٣/٤)، وحسنه النووي في الرياض». وللزهد باب مستقل بإذن الله تعالى.

مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون؟ فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء»[١].

قال النووي رحمه الله: «معناه تجنبوا الافتتان بها وبالنساء، وتدخل في النساء الزوجات وغيرهن،[٢] وأكثرهن فتنة الزوجات، ودوام فتنتهن وابتلاء أكثر الناس بهن.

ومعنى «**الدنيا خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ**»: يحتمل أن المراد به شيئان: **أحدهما:** حسنها للنفوس ونضارتها ولذتها، كالفاكهة الخضراء الحلوة، فان النفوس تطلبها طلبًا حثيثًا فكذا الدنيا. **والثاني:** سرعة فنائها، كالشيء الأخضر في هذين الوصفين. ومعنى «**مستخلفكم فيها**»: جاعلكم خلفاء من القرون الذين قبلكم، فينظر هل تعملون بطاعته أم بمعصيته وشهواتكم»[٣].

وقال في «فيض القدير»: «قوله ﷺ: «**الدنيا حلوة**» أي: مشتهاة مونقة، تُعجب الناظرين، فمن استكثر منها أهلكته، كالبهيمة إذا أكثرت من رعي الزرع الأخضر أهلكها.

ففي تشبيه الدنيا بالخضرة التي ترعاها الأنعام إشارة إلى أن المستكثر منها

---

(١) مسلم (٧١٢٤).

(٢) وكثير من الناس يغفل عن هذا المعنى، ويذهب ظنّه إنّ المقصود حصرها بغير ذوات المحارم، مع أن دخول الذنوب على الرجل من جهة محارمه وزوجته قد يزيد أحيانًا على غيره لدخوله في المظالم، وفي التقصير في أداء الحقوق، وفي الدنايا وغير ذلك.

(٣) شرح النووي على مسلم (٩ / ١٠٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كالبهائم، فعلى العاقل القنع بما تدعو الحاجة منها وتجنب الإفراط والتفريط في تناولها فإنه مهلك»(١).

الدنيا فاتنة بجمالها وإغرائها ولا ينجو من فتنتها إلا من رحمه الله فبصَّره وهداه، «**إن الدنيا حلوة خَضِرَة**»، قال في «النهاية»: «الخَضِرُ: نوع من البقول ليس من أحرارها وجيّدها، فشبّه الدنيا للرغبة فيها والميل إليها بالفاكهة الحلوة الخضرة، فإنّ الحلو مرغوب فيه من حيث الذوق، والأخضر مرغوب فيه من حيث النَّظَر، فإذا اجتمعا زادت الرغبة. وفيه إشارة إلى عدم بقائها.

«**فاتقوا الدنيا**» أي: اجتنبوا فتنتها، واحذروا أن تُميلَكُم محبتها والاغترار بها عن أوامر الله تعالى واجتناب مناهيه فيها.

«**واتقوا النساء**» أي: اجتنبوا الافتتان بهن. أي: أن يمنعكم التمتع بهن لاستيلاء محبتهن عن القيام بأداء حقوق العبودية، والتقرّب إلى مراضي الله تعالى. «**فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**» أي: بسببهن، فهو كحديث «**عُذبت امرأة في هِرَّة**»(٢). فبسببهن هلك كثير من الفضلاء»(٣).

واعلم أنّ فتنة النساء أشد من فتنة المال عند بعضهم، والعكس صحيح

---

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير (٨ / ١٥٩).

(٢) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنّ رسول الله ﷺ قال: «**عُذِّبَت امرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتهَا حَتَّى مَاتَت، فدخَلَت فيهَا النَّارَ، لا هي أطعَمَتهَا وسَقَتهَا إذ هي حَبَسَتهَا، ولا هي تَرَكَتهَا تَأكُلُ مِن خَشَاشِ الأَرضِ**». رواه البخاري (٣٣١٨)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (١ / ٣١١).

لدى آخرين، وكلُّ امرئ قد رُكِّبَ فيه ضعفٌ وميلٌ بحكم بشريَّته وتوجِّه غريزته، فيستحكم في جهة دون الأخرى، وقد حذَّر رسول الله ﷺ أمته من الفتنتين، فقال في شأن النساء: «**ما تركتُ بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء**»(١). وقال في فتنة شأن المال: «**لكلِّ أمةٍ فتنةٌ، وفتنةُ أمتي المال**»(٢).

فلدى بعض الناس ميل غريزي للنساء أكثر بكثير من ميله لجمع المال، ولدى آخرين طمع وجشع وشحٌّ وهلع للمال مع زهده في أمر النساء، والشيطان فطنٌ كائدٌ خبير، يشمُّ قلبَ عدوِّهِ وابنِ عدوِّهِ آدم فحيثما وجد ضعفًا وَلَجَ منه إليه، سواء من هذين البابين أو من سواهما كحب الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك.

وقد أجاب الطحاوي رحمه الله تعالى عن كيفية الجمع بين ذكر الأضرِّ في فتنتي النساء أو المال فقال: «قال ﷺ: «**فتنة أمتي المال**»، ففي هذا الحديث أنّ فتنة أمته المال، فكيف يجوز أن تكون فتنة النساء أعظم من ذلك؟

فكان جوابنا له في ذلك: أنّ قوله ﷺ: «**ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرجال من فتنة النساء**» هو على الفتنة التي تلحق الرجال دون النساء، وفي ذلك ما قد دل أنه ترك ﷺ في أمته فتنًا سوى النساء، وكان قوله ﷺ: «**فتنة أمتي المال**» على فتنة تعم الرجال والنساء من أمته، فكانت تلك الفتنة أوسع وأكثر أهلًا من الفتنة الأخرى، وكلُّ واحدة منهما فأهلها الأهل الذين قد دلّ كلّ واحد من

(١) متفق عليه. البخاري ٧/ ١١ (٥٠٩٦)، ومسلم ٨/ ٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصحّحه الألباني.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

هذين الحديثين عليهم من هم.

وقد حذَّر نبيُّنا ﷺ من فتنة الدنيا ومن فتنة النساء، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إنّ الدنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ**(١)، **وإنّ الله مستخلِفُكُمْ فيها، فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا فتنة الدنيا وفتنة النساء، فإنّ أوّل فتنة بني إسرائيل في النساء**»(٢). فكان في هذا الحديث جمعه بذكر فتنة النساء وفتنة الدنيا، وفيها الفتنة بالمال، والفتن بما سوى ذلك، والله الموفق»(٣).

ففتنة المال مِنْ أَوَّلِياتِ فتنة الدنيا للعالمين.

وقال أبو حاتم البستي: «أعظم المصائب: سوء الخلق، والمسألة من الناس، والهمّ بالسؤال نصف الهرم، فكيف المباشرة بالسؤال، ومن عزّتْ عليه نفسُهُ؛ صغرت الدنيا في عينيه.

ولا ينبل الرجل حتى يعفَّ عما في أيدي الناس، ويتجاوز عما يكون منهم، والسؤال من الإخوان ملال، ومن غيرهم ضدّ النوال»(٤).

وعن المديني قال: «كان يقال: مروءة الصبر عند الحاجة والفاقة بالتعفّف

---

(١) خَضِرَة: غضَّة ناعِمَة طريَّة نضرة كالثمرة الطيبة.

(٢) مسلم (٧١٢٤).

(٣) مشكل الآثار» للطحاوي (٩ / ٣٣١) بتصرف يسير.

(٤) روضة العقلاء (١٤٦).

والغنى أكثر من مروءة الإعطاء»[١]. وهذا معنى شريف لا يدركه كلُّ أحد.

وقال الشافعي رحمه الله تعالى: «الفضائلُ أربع: إحداها: الحكمة، وقوامها الفكرة. والثانية: العفَّة، وقوامها الشهوة. والثالثة: القوّة، وقوامها الغضب. والرابعة: العدل، وقوامه في اعتدال قوى النفس»[٢].

«وكتب الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا أخي، من استغنى بالله اكتفى، ومن انقطع إلى غيره تعنَّى، ومن كان من قليل الدنيا لا يشبع؛ لم يغنه منها كثرة ما يجمع، فعليك منها بالكفاف، وألزم نفسك العفاف، وإياك وجمع الفضول، فإن حسابه يطول.

وقال بعض الحكماء: «هيهات منك الغنى؛ إن لم يقنعك ما حَوَيْتَ»[٣]. اللّٰهم نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، إلهَ الحقِّ.

---

(١) روضة العقلاء (١٥١).

(٢) انظر: موسوعة الأخلاق» من إصدار مؤسسة الدرر السنية. فصل: العفاف.

(٣) أدب الدنيا والدين (١ / ٢٧١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِن أعظمِ العفافِ حفظُ الفرْجِ

الفرجُ الحرامُ حفرةٌ إلى الجحيم، وأكثرُ أهل النار إنما دخلوا منها ومِن اللسان، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله، وحسنُ الخلق**»، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار. فقال: «**الفمُ والفرج**»(١).

وفي التنزيل تشديد على قفل هذا الباب المهلك، فقد نهى سبحانه عن مجرد قربانه فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١] وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢] وأمر بحفظ الفروج.

قال الكفوي في «الكليات»: «كل آية ذكر فيها حفظ الفروج فهو من الزنا إلا قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] فإن المراد بها الاستتار»(٢).

وقال البغوي رحمه الله في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]: «الفرج اسم يجمع سَوْأَةَ الرجل والمرأة، وحفظ الفرج: التّعفّفُ

---

(١) أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١). قال محقق «جامع الأصول (١١/ ٦٩٤): رواه ابن حبان في صحيحه»، وهو حديث صحيح بشواهده. وابن ماجه (٤٢٤٦). وحسنه الألباني.

(٢) وانظر: مقاييس اللغة (٤/ ٤٩٨)، والمفردات (٣٧٥)، ولسان العرب»: (٢/ ٣٤٢، ٧/ ٤٤٢).

عن الحرام»(١).

لقد امتدح المولى عز وجل الحافظين فروجهم والحافظات، وجعل ذلك من سمات الفلاح وعلامات الفوز في الدار الآخرة، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ١- ٥].

وقد وعد الله هؤلاء المفلحين بقوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠- ١١]، وإذا كان ذلك هو الجزاء في الآخرة، فما أثر ذلك في الحياة الدنيا؟

إنّ حفظ الفروج وما يستلزمه من غض البصر والعفة عن المحارم يؤدي إلى تماسك بنيان المجتمع، وحفظه، وسلامته من الأمراض الاجتماعية الفتاكة كاختلاط الأنساب، والأمراض الصحية المهلكة كمرض الإيدز الذي انتشر في المجتمعات الفاجرة الماجنة بصورة تؤدي إلى الخراب والدمار.

أما على المستوى الفردي: فإنّ حفظ الفرج يُجنّب صاحبه مَعَرَّاتِ الخطيئات، وشديدات العقوبات الوبيلات، وما أشدَّ ويلات الزِّنَا، وما أكثرَها! وقد أشار إلى بعض ذلك الإمام ابن القيم عند ما قال: «الزنا يجمع خلال الشر كلها من قلّة الدين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلّة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق، إذ

(١) معالم التنزيل (١٨/ ٣٠٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الغدر والكذب والخيانة وقلة الحياء وعدم المراقبة وعدم الأنفة للحرم وذهاب الغيرة من شُعَبِهِ ومُوجِبَاته»[١].

ومفهوم ذلك أنّ الذي يحافظ على فرجه يقي نفسه هذه الخلال السيئة، ويتصف بأضدادها من السجايا الحميدة، مِن كمال الدين والمروءة والغَيرة والوفاء والمراقبة ونحوها مما يسعد المرء في الدنيا والآخرة. ومما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله تعالى:

عِفُّوا تعِفَّ نساؤكم في المحرمِ ... وتجنَّبُوا ما لا يليقُ بمسلمِ
إنَّ الزِّنا دَينٌ إذا أقرضتَه ... كان الوفا مِن أهلِ بيتِك فاعلمِ
يا هاتكًا حُرمَ الرجالِ وقاطعًا ... سُبلَ المودةِ عشتَ غيرَ مُكرَّمِ
لو كنتَ حرًّا مِن سُلالةِ ماجدٍ ... ما كنتَ هتَّاكًا لحرمةِ مُسلمِ
من يزنِ يُزنَ به ولو بجدارِه ... إن كنتَ يا هذا لبيبًا فافهمِ

(١) غذاء الألباب» للسفاريني الحنبلي (٢/ ٣٤٥)، نقلًا عن «روضة المحبين» لابن القيم.

بم تحفظ الفروج؟

إذا كان الإسلام قد أمر بحفظ الفروج من الزنا وما يشبهه ويلحق به؛ فإنّه قد أوضح بجلاء لا ريب فيه الطرق الكفيلة بحماية الفرد والمجتمع من هذه الآفات المهلكة، فحثَّ على العفّة والطهارة، وأمر بِغَضّ البصر، ونهى عن التبرج والسفور عند من لا يحلّ، وغلّظ عقوبة الزنا والفواحش، ليس ذلك فحسب، ولكنه حث على الزواج لمن يقدر عليه تحصينًا لفرجه، وبالصوم لمن لا يقدر على الزواج، وما ذلك إلا ليقي المسلم من ثوران الشهوة وسطوة الغريزة من ناحية، والمحافظة على النسل وتقوية المجتمع الإسلامي بما ينجم عن الزواج من تكثير عدد المسلمين واستمرارية وجودهم من ناحية أخرى. فحما حمى الحرام من جهة، وبنى بناء العفاف والإنتاج من جهة، ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ١٣٨﴾ [البقرة: ١٣٨].

حثُّ الإسلام على الزواج:

حضَّت الشريعةُ الغَرَّاءُ في مواطن عديدة على الزواج تحصينًا للفرج وحفاظًا على المجتمع، ووقاية من الانحراف أو الانجراف نحو مقتضياتِ رغبةٍ طائشةٍ، ونزغةٍ هائجةٍ، ولهثةٍ هاربةٍ، فقال عز من قائل: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلۡأَيَٰمَىٰ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنۡ عِبَادِكُمۡ وَإِمَآئِكُمۡۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغۡنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [النور: ٣٢]. وجعله المصطفى ﷺ من سنّته، وذلك كما جاء في حكاية الرهط الذين تقالّوا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عبادته ﷺ، وقال أحدهم: أما أنا فأعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا ... الحديث(١).

وهنا ردّ عليهم الرسول الكريم الشريف العفيف ﷺ بأن قال: «**لَكِنِّي أُصَلِّي وأَنَامُ، وأَصُومُ وأُفطِرُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ**»، وقال تعقيبًا على ذلك: «**فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي**».

قال ابن حجر رحمه الله تعالى: «والمراد من ذلك أن من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس منّي، يلمح بذلك إلى طريق الرهبانية التي ابتدعوها تشدّدًا وما وَفَوا بما التزموه، أمّا طريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة فإنّ منها التزوج لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل»(٢)(٣).

وقال أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في معرض كلامه عن الزهد وعلاماته: «وكشف الغطاء عن ذلك أن نقول: من غلبت عليه شهوته وخاف على نفسه؛ تعيّن عليه النكاح، فأمّا من لا يخاف، فهل النكاح في حقه أفضل أو التعبد؟ فيه اختلاف بين العلماء.

والناس مختلفون فيه، فمنهم من يقصد النكاح لطلب النسل ويمكنه الكسب الحلال للعائلة، فلا يقدح ذلك في دينه، ولا يتشتّت قلبه، بل يجمع النكاح همَّه، ويكفّ بصره، ويردّ فكره، فهذا غايةٌ في الفضيلة، وعليه يُحمل حالُ رسول الله ﷺ، وحالُ عليٍّ رضى الله عنه، ومن جرى مجراهما، ولا التفات إلى

---

(١) متفق عليه.

(٢) فتح الباري (٩/ ٨).

(٣) وانظر: نضرة النعيم (٥ / ١٦٥٥-١٦٥٦).

قول من يرى الزهد بترك الالتذاذ بالنكاح، فإن ذلك يقع ضمنًا وتبعًا للمقصود.

وقد كان بعض السلف يختار المرأة الدُّونَ على الجميلة، وذلك محمولٌ على أنّ تلك تكون إلى الدِّين أَمْيَل، والنّفقة عليها أقلّ، والاهتمام بأمرها يسير، بخلاف المستحسنة، فإنّها تُشتّتُ القلب، وتشغله، وتريد زيادة في النفقة، وربما لم يكن. وقد قال مالك بن دينار: يعمد أحدهم فيتزوج ديباجة الحي، فتقول: أريد مرطًا؛ فتمرط دينه!

أما المال فهو ضروري في المعيشة، فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت، وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف. وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبّتين، قام. وكان سعيد بن المسيب يتّجِرُ في الزيت، وخلّف أربعمئة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

أما الجاه فلا بد للإنسان من جاهٍ حتى في قلب خادمه، واشتغالُ الزاهد بالزهد يمهّد له الجاهَ في القلب، فينبغي أن يتحرّز من شرّ ذلك.

وفي الجملة؛ فإنّ الحوائج الضرورية ليست من الدنيا، وكان كثير من السلف يعرض لهم المال الحلال، فيقولون: لا نأخذه، نخاف أن يفسد علينا ديننا»[1]. والله المستعان.

(١) مختصر منهاج القاصدين» للمقدسي (٤ / ٩١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عفافُ الفرج سبيلُ الجنة

قال تعالى موصيًا عباده بحفظ فروجهم بالوصف بالحفظ والصون والعفاف، وبالوعد بالمغفرة والأجر والفلاح: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ١ - ٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وقال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

إنّ عفاف الفرج من محاور عفاف المؤمن، بل إنّ أوّلَ خاطرٍ في دائرة العفاف هو حفظ الفرج وصيانته وسدّ ذرائع دَنَسِهِ. قال جل وعزَّ، آمرًا باتخاذ أسباب العفاف وبالاتصاف بالعفاف المطلق حتى مع تعذُّر النكاح: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣].

كما بيّن أنّ تمام الستر للقواعد من النساء خير من كشف المباح منه، فقال سبحانه: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن

يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٠].

وأخبر ﷺ أنّ العفاف من أسباب تحصيل الجنة وضمان دخولها برحمة الله تعالى، فعن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**من يضمن لي ما بين رجليه وما بين لحييه؛ أضمن له الجنة**»(١).

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنّ نبي الله ﷺ قال: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصدقوا إذا حدّثتم، وأوفوا إذا وعدتّم، وأدّوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم**»(٢).

وعن عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها، قيل لها: ادخلي الجنة من أيِّ أبواب الجنة شئت**»(٣).

ولقد خاف ﷺ على أمته من غوائل الفرج الحرام فقال: «**إنما أخشى عليكم شهوات الغيِّ في بطونكم وفروجكم ومُضَلَّات الهوى**»(٤).

---

(١) البخاري (٦٤٧٤).

(٢) أحمد في المسند (٥/ ٣٢٣)، وابن حبان (٢٧١)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٩).

(٣) أحمد في المسند (١/ ١٩١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع» من طريق أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (٦٧٣).

(٤) أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢٣)، والهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨)، وقال: «رواه أحمد والبزار =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتأمل وصف حياء المؤمن في حديث معاوية بن حيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك، أو ما ملكت يمينك**». قلت: يا رسول الله، فالرجل يكون مع الرجل؟ قال: «**إن استطعت ألا يراها أحد فافعل**»، قلت: فالرجل يكون خاليًا؟ قال: «**الله أحق أن يستحيي منه الناس**».

وفي رواية: قلت: يا رسول الله، إذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «**إن استطعت ألا يراها أحد فلا يرينها**». قلت: فإذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «**الله أحق أن يستحيي منه الناس**»(١).

وكان ﷺ يخص الشباب بمزيد وصايا بالعفاف، فعن علقمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنت أمشي مع عبد الله(٢) بمنى، فلقيه عثمان، فقام معه يحدّثه، فقال له عثمان: يا أبا عبد الرحمن، ألا نزوّجك جارية شابة. لعلها تذكرك بعض ما مضى من زمانك؟

قال: فقال عبد الله: لئن قلت ذاك، لقد قال لنا رسول الله ﷺ: «**يا معشر**

والطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح». وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/ ٥٠٤) والجديع في العقيدة السلفية (١/ ٢٥).

(١) أحمد (٤/ ٤٢٠، ٤٢٣)، والهيثمي في المجمع (١/ ١٨٨)، وقال: رواه أحمد والبزار والطبراني في الثلاثة ورجاله رجال الصحيح.

(٢) وإذا أطلق علقمه عبد الله فالمعنيُّ ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان علقمة من أخصّ أصحابه به.

الشباب، من استطاع منكم الباءة[١] فليتزوّج، فإنّه أغضُّ للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ»[٢].

والمقصود بالصوم أي: بتكراره وصيام الأيام الكثيرة حتى تضعف الغريزة مع المداومة، والله أعلم.

والحذر الحذر من مبادئ الشرر وهي حرام النظر، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يأمر المؤمنين بغض أبصارهم وحفظ فروجهم، ولما كان مبدأ ذلك من قبل البصر جعل الأمر بغضه مقدمًا على حفظ الفرج، فإنّ الحوادث مبدؤها من النظر، فتكون نظرة ثم خطرة ثم خطوة ثم خطيئة؛ ولهذا قيل: من حفظ هذه الأربعة أحرز دينه: اللحظات والخطرات واللفظات والخطوات»[٣].

ومن وصايا الناصحين: «من رأى افتتان الشباب بالنساء، وكثرة ما يقع من الشر بمصادقتهن، أو النظر إليهن، علم صدق نصح النبي ﷺ لأمته، وكمال

---

(١) الباءة: مؤن النكاح والقدرة عليه جسديًّا ونفسيًّا وماليًّا، وهي في الأصل سهلة ميسَّرة، ولكن الناس تكلفوا فيها بما لا طائل من ورائه فسدُّوا على أنفسهم أبوابًا من الخير كثيرة، والله المستعان.

(٢) البخاري «الفتح (٤/ ١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠). واللفظ له. والوِجاء: أن تُرَضَّ خصيتا الفحل رضًّا شديدًا فتذهب شهوة الجماع ورغبته وقدرته، والمراد: أنّ الصومَ يقطع شهوة النكاح كما يقطعها الوجاء.

(٣) الداء والدواء (٢٣٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

شفقته ورحمته بهم.

وكم من إنسان بدأ بما يسمّونه بميل عاطفي، ثم آل أمره إلى عشق مستحكم، قد لا ينفع فيه الدواء، هذا إن استعصم وكفّ نفسه عن الزنا، عياذًا بالله من ذلك.

وينبغي أن يسأل المؤمن نفسه ويحاسبها: ما الهدف من هذه العلاقات؟ وإلى متى؟ وماذا بعد؟ وكم من معصية بالقلب أو بالعين أو بالأذن تسجل عليه أثناء ذلك؟

وهل يرضى أن يصدر هذا من زوجته أو أخته مع غيره؟!

إنّ الإسلام لا يقر علاقة حب تنشأ بين رجل وامرأة أجنبية عنه إلا في ظلّ الزواج الذي أباحه الله تعالى، ورغب فيه»[1]. ولله معن بن أوس إذ قال:

لعمرُكَ ما أهويتُ كفِّي لريبةٍ ... ولا حملتني نحوَ فاحشةٍ رجلي
ولا قادني سمعي ولا بصري لها ... ولا دلَّني رأيي عليها ولا عقلي
وأعلمُ أني لم تُصبني مصيبةٌ ... مِن الدهر إلا قد أصابتْ فتًى قبلي
ولستُ بماشٍ ما حييتُ بمنكرٍ ... مِن الأمرِ لا يسعَى إلى مثلِه مثلي
ولا مُؤْثرًا نفسي على ذي قرابةٍ ... وأُوثرُ ضيفي ما أقام على أهلي

(١) فتاوى الشبكة الإسلامية (٦٠ / ٣١٥) بتصرف واختصار.

ومن فوائد حفظ الفرج:

(١) الفلاح والفوز برضوان الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

(٢) مَن حفظ الفرج يكون قد حفظ النسل وطهارة الإنجاب.

(٣) به ينشأ المجتمع النظيف النقي من الدنس وأدران الزنا.

(٤) يحفظ القلوب من التعلق بالمحرمات.

(٥) يحفظ المسلمين من أن يسري فيهم داء الزنا وما يتبعه من الأوبئة.

(٦) يحفظ الصحة العامة من عاديات الأمراض الفتاكة التي تنتج عن انتشار الزنا كالزهري والإيدز كما هو الآن في المجتمعات الغربية.

(٧) يمنع المفاسد ويطهر الذمم ويؤلف القلوب.

(٨) ينشر الأمن ويحفظ الأعراض بين أفراد المجتمع.

(٩) هو عفاف يمتاز به أصحاب الشرائع السماوية عن غيرهم من عباد الأصنام والدهريين والكفرة وغيرهم.

(١٠) في حفظ الفرج بالزواج فوائد عديدة ذكرها الإمام الغزالي منها التفرغ للعلم والعمل، وترويح النفس وإيناسها، ومجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية للأهل والولاية عليهم.

(١١) يزيد في الحسنات ويرفع الدرجات.

(١٢) النية الصالحة فيه تحوّله من عادة إلى عبادة[١].

وبالجملة؛ فعفاف الفرج وسيلة لدحول الجنة برحمة الله تعالى، فاحرص على عفاف فرجك حِرْصك على هواء صدرك، وبالله العصمة والتوفيق.

(١) وانظر: نضرة النعيم (١٠ / ٤٥٦٨).

شناعة فاحشتي الزنا واللواط، وخبثهما وشقاء أهلهما

يكفي لخبث هاتين الجريمتين الرّذيلتين أنّ الله تعالى قد سمّاهما فاحشة. والفحش هو كل ما عظُم من جنسه الرديء، ففُحش الأخلاق الزنا واللواط.

والزنا: هو وطء المرأة من غير عقد شرعي(١)، واللواط: هو وطء الذكر.

«ولقد وسم الله سبحانه الشرك والزنا واللواطة بالنجاسة والخبث في كتابه دون سائر الذنوب، وإن كانت جميعًا تشتمل على ذلك، لكن الله عز وجل خص هذه الذنوب لغلظها فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ [التوبة: ٢٨].

وقال في حق اللواطة: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، كما ذكر عن اللوطية أنفسهم أنهم نفوا عن أنفسهم الطهارة فقال: ﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ [النمل: ٥٦].

وأما الزناة فجاء وصفهم صريحًا فقال تعالى: ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

والمقصود الآن بيان ما في الزنا واللواطة من نجاسة وخبث أكثر وأغلظ

---

(١) المفردات (٢٢٠)، وانظر: لسان العرب (٣/ ١٨٧٥، ١٨٧٦)، ونهاية المحتاج (٧/ ٤٠٢، ٤٠٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

من سائر الذنوب ما دون الشرك؛ وذلك لأنها تفسد القلب وتضعف توحيده جدًّا.

ولهذا كان أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركًا، فكلما كان الشرك في العبد أغلب كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر، وكلما كان العبد أعظم إخلاصًا كان منها أبعد، فليس في الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين، ولهما خاصية في إبعاد القلب من الله، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ من الله الطيّب الذي لا يصعد إليه إلا الطيب»[١].

قال الذهبي رحمه الله: «النظرة بشهوة إلى المرأة والأمرد زنا، ولأجل ذلك بالغ الصالحون في الإعراض عن المردان[٢] وعن النظر إليهم وعن مخالطتهم ومجالستهم. وكان يقال: لا يبيتنّ رجل مع أمرد في مكان واحد.

وحرم بعض العلماء الخلوة مع الأمرد في بيت أو حانوت أو حمّام قياسًا على المرأة؛ لأن النبي ﷺ قال: «**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**»[٣]، وفي المردان من يفوق النساء بحسنه، فالفتنة به أعظم، وأنه يمكن في حقه من الشر ما لا يمكن في حق النساء، ويتسهل في حقه من طريق الريبة والشر ما لا يتسهل في حق المرأة، فهو بالتحريم أولى.

وأقاويل السلف في التنفير منهم والتحذير من رؤيتهم أكثر من أن تحصر.

---

(١) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان (٧٨ - ٨٢) بتصرف.

(٢) المردان: جمع أمرد، وهو الشاب الذي لم تنبت له لحية.

(٣) أحمد (١٧٧).

وقد جاء رجل إلى الإمام أحمد رحمه الله تعالى ومعه صبي حسن، فقال الإمام: ما هذا منك؟ قال: ابن أختي. قال: «لا تَجِئْ به إلينا مرة أخرى، ولا تمشِ معه في طريق لئلّا يظن بك من لا يعرفك ولا يعرفه سُوءًا»»[١].

وقال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: «عَدُّ الزنا من الكبائر هو ما أجمعوا عليه، واختلف في أيهما أشنع وأقبح، هل القتل أو الزنا؟ والصحيح أنّ الذي يلي الشرك في الكبائر هو القتل[٢] ثم الزنا، وأفحش أنواعه الزنا بحليلة الجار، والزنا أكبر إثمًا من اللواط، لأنّ الشهوة داعية إليه من الجانبين، فيكثر وقوعه ويعظم الضرر بكثرته، ولما يترتب عليه من اختلاط الأنساب، وبعض الزنا أغلظ من بعض، فالزنا بحليلة الجار، أو بذات الرحم، أو بأجنبية في شهر رمضان، أو في البلد الحرام، فاحشة مشينة».

مراتب القبح في الزنا:

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله تعالى: «الزنا له مراتب (متفاوتة)؛ فهو بأجنبية لا زوج لها عظيم، وأعظم منه بأجنبية لها زوج، وأعظم منه بمحرم، وزنا الثيب أقبح من البكر بدليل اختلاف حدَّيهما.

وزنا الشيخ لكمال عقله أقبح من زنا الشاب، وزنا الحرّ والعالِم لكمالهما أقبح من زنا العبد والجاهل»[٣].

---

(١) الكبائر (٥٨ - ٥٩) بتصرف.

(٢) أي: قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق.

(٣) الزواجر (٥٤١ - ٥٥٤) باختصار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

السفاح والمخادنة:

لقد نهى الله تعالى عن كل أنواع الزنا، سرًّا كان أو جهرًا، وسواء كان احترافًا أو مجرد نزوة، من حرة أو من أمة، من مسلمة أو غير مسلمة، كما نهى أيضًا عن الخطوات التي تسبقه وتؤدي إليه كالمخادنة والمصادقة والمساكنة، وقد سوَّى في ذلك بين الرجال والنساء، فقال تعالى: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥]، وقال عز من قائل: ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥].

وقد عد العلماء كلا الأمرين -أي السفاح والمخادنة- من الزنا المحرم، يقول النيسابوري: «السفاح: هو الزنا على سبيل الإعلان. والمخادنة: هي اتخاذ خَدَنٍ -أي خليل أو صديق- على سبيل الإسرار»(١).

وقال الطبري: «﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: أي غير معالنين بالسفاح (الزنا) بكل فاجرة، ﴿وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ﴾: أي ولا منفردين ببغيّ واحدة، ومعنى خادنها: اتخذها لنفسه صديقة ليفجر بها، وذات الخدن: أي ذات الخليل الواحد»(٢)(٣).

لقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنهى سبحانه عن مجرد قربان الزنا وهي مقدماته وذرائعه ووسائله كالنظر

---

(١) الزواجر (٤٥٥).

(٢) رغائب الفرقان، على هامش الطبري (٤/ ٦) (٦٣).

(٣) تفسير الطبري (٤/ ٦) (٧٠، ٧١).

والكلام والمراسلة واللمس والصداقة ونحو ذلك.

وقد بين سبحانه أن الطيب مستحق للطيب وشبيه له وأن الخبيث شكيلٌ لخبثٍ يسايره فقال تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، ولم يحجب ربنا باب التوبة فقال: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٥].

وتدبّر ترتيب الذنوب في سورة الفرقان بحسب شناعتها وخبثها، فجعل الزنا هو ثالث أكبر ذنب عُصي الله تعالى به حتى قَرَنَهُ بالشرك والقتل الحرام!

فقال جل وعلا: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وقد جاءت السنة أيضًا بذلك، فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رجل: يا رسول الله، أي الذنب أكبر عند الله؟ قال: «**أن تدعو لله ندًّا وهو خلقك**» قال: ثم أيّ؟ قال: «**ثم أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك**». قال: ثم أي؟ قال: «**ثم أن تزاني حليلة جارك**»، فأنزل الله عز وجل تصديقها: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾[الفرقان: ٦٨]»(١).

---

(١) انظر: «نضرة النعيم (١٠ / ٤٥٧١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: **«أبايعكم على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا، ولا تشربوا مسكرًا؛ فمن فعل من ذلك شيئًا فأقيم عليه حدّه فهو كفّارة، ومن ستر الله عليه فحسابه على الله عز وجل، ومن لم يفعل من ذلك شيئًا؛ ضمنتُ له على الله الجنة»**(١).

وكان الرجل إذا أسلم عفَّ وكفَّ وابتعد عن الحرام، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن مرثد بن أبي مرثد الغنوي، وكان رجلًا شديدًا وكان يحمل الأسارى من مكة إلى المدينة(٢).

قال: فدعوت رجلًا لأحمله، وكان بمكة بغيٌّ يقال لها: عَنَاق، وكانت صديقته، خرَجَت فرأت سوادي في ظل الحائط فقالت: من هذا؟ مرثد، مرحبًا وأهلًا يا مرثد. انطلق الليلة فبت عندنا في الرحل.

قلت: يا عناق؛ إنّ رسول الله ﷺ حرَّم الزنا. قالت: يأهل الخيام هذا الدلدل(٣) هذا الذي يحمل(٤) أُسَرَاءَكُمْ من مكة إلى المدينة، فسلكت

---

(١) البخاري «الفتح (١٢/ ٦٨٦١) واللفظ له، ومسلم (٨٦).

(٢) الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله موثقون.

(٣) الدلدل: هو القنفذ، وقيل ذكر القنافذ، شبّهته به، لأنه أكثر ما يظهر في الليل، ولأنّه يخفي رأسه في جسده ما استطاع.

(٤) أي: يهرِّبهم.

الخَنْدَمَة(١) فطلبني ثمانية فجاءوا حتى قاموا على رأسي فبالوا، فطار بولهم عليَّ، وأعماهم الله عنّي(٢)، فجئت إلى صاحبي فحملتُهُ، فلما انتهيت به إلى الأراك(٣) فككت عنه كَبْلَهُ(٤).

فجئت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله أنكح عناق؟ فسكت عني، فنزلت: ﴿وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣] فدعاني فقرأها علي وقال: «**لا تنكحْهَا**»(٥).

وكان سلمة بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: إنما هي أربع، فما أنا بأشحُّ مني

---

(١) الخندمة: جبل ضخم في مكة، وله ذكر في فتح مكة. والمراد؛ أنّه سلك طريق الجبل هاربًا مستخفيًا.

(٢) «**احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**». أخرجه أحمد (١/٢٩٣) (٢٦٦٩) أي: ينجيك وقت البلاء ولا يتركك لنفسك ولا لخلقه، بل يتولاك لأنه ولي الصالحين.

(٣) موضع يكثر فيه نبات الأراك الذي تُتّخذ من عروقه المساويك. وتهامة بعامَّة صالحة لهذا النبت الطيب. والعرب إذا رأت العَرَارَ حنَّت لنجد، وإذا رأت الأراكَ حنَّت لتهامة.

(٤) الكَبْل: القيد الغليظ. وقيل: هو القيد مطلقًا، قال عكرمة: «كان ابن عباس يجعل في رجلي الكبل يعلمني القرآن ويعلمني السنة». «عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩ / ١٧٤).

(٥) النسائي (٦/ ٦٦، ٦٧) واللفظ له، وحسنه الألباني (٢/ ٦٨) (٣٠٢٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليهن[١] يوم سمعتهن من رسول الله ﷺ: «**ألا لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا**»[٢].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يحبهم الله، وثلاثة يبغضهم الله: فأما الذين يحبهم الله: فرجل أتى قومًا فسألهم بالله ولم يسألهم بقرابة بينه وبينهم فمنعوه، فتخلَّف رجل بأعقابهم فأعطاه سرًّا لا يعلم بعطيته إلا الله والذي أعطاه**[٣]**، وقوم ساروا ليلتهم حتى إذا كان النوم أحبّ إليهم مما يُعدل به نزلوا فوضعوا رؤوسهم، فقام أحدهم يتملَّقني ويتلو آياتي**[٤].

ورجل كان في سريّة فلقي العدو فهزموا، وأقبل بصدره حتى يقتل أو يفتح له[٥]**. والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشيخ الزاني، والفقير المختال، والغني الظلوم**»[٦].

---

(١) أي: من المبالغة في التحرز منهن واجتنابهن، فهو شحيح بدينه، لا يسمح لنفسه بتدنيسه وتقذيره بهنّ.

(٢) الهيثمي في المجمع (١/ ١٠٤)، وقال: رواه الطبراني في الكبير» ورجاله ثقات.

(٣) وتلمَّح محبة الله لفضيلة الإخلاص.

(٤) وهذا لعظيم رغبته في مرضاة ربه، وديمومته على باب الخير المشرع له لربه مهما كان حاله.

(٥) وفيه الفداء بالروح لتحصيل مرضاة الله تعالى.

(٦) الترمذي (٢٥٦٨) واللفظ له، وقال: هذا حديث صحيح. والنسائي (٥/ ٨٤)، وحسنه الأرناؤوط في تعليقه على جامع الأصول (٩/ ٥٦٤).

لقد أبغضهم الله تعالى لضعف داعي المعصية لديهم، ومع ذلك كرعوا فيها لخبث نفوسهم وسوء تديّنهم وتدنّيهم.

ومنه حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل**[(١)] **مستكبر**»[(٢)].

والله تعالى يغار، ولا أحد أغير منه، فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: خسفت الشمس في عهد رسول الله ﷺ ... الحديث. وفيه قال: «**يا أمة محمد؛ والله ما من أحدٍ أغير من الله أن يزنيَ عبدُه أو تزني أمَتُه! يا أمة محمد، لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا**»[(٣)].

ومن شؤم الزّنا أنّ الله تعالى قد أرصد لصاحبه في القبر عذابًا شديدًا، فعن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: «**هل رأى أحد منكم من رؤيا؟**» قال فيقص عليه ما شاء الله أن يقص، وإنه قال لنا ذات غداة: «**إنه أتاني الليلة آتيان**[(٤)]**، وإنّهما ابتعثاني، وإنهما قالا لي: انطلق، وإني انطلقت معهما، وإنا أتينا على رجل مضطجع** ... الحديث.

---

(١) أي: الفقير، من العيلة وهي الحاجة، وفي محكم التنزيل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ [التوبة: ٢٨].

(٢) مسلم (١٠٧).

(٣) البخاري الفتح (٢/ ١٠٤٤)، واللفظ له. ومسلم (٩٠١).

(٤) أي: في منامه، ورؤيا الأنبياء وحي وحق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفيه: **وأما الرجال والنساء العراة الذين في مثل بناء التنور فهم الزناة والزواني**»(١).

ويكفي في شر الزنا حَدُّهُ العنيف وعقوبته الشنيعة جدًّا في الدنيا قبل الآخرة، ففيه الرجم بالحجارة حتى الموت للزاني المحصن كما في خبر ماعز الأسلمي وخبر الغامدية وخبر العسيف فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «... **واغدُ يا أنيس على امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها**»، فغدا عليها، فاعترفت، فرجمها(٢). رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذ جادت بنفسها تائبة لربها.

والزنا يطرد كمال الإيمان الواجب من القلب، فإنه ينقص الإيمان جدًّا فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**»(٣).

والزنا مؤذنٌ بالموت العام عقوبة من الله تعالى، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «ما ظهر الغلول(٤) في قوم قط إلا ألقي في قلوبهم الرعب، ولا فشا(٥) الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم

---

(١) البخاري «الفتح (١٢/ ٧٠٤٧) واللفظ له. ومسلم (٢٢٧٥) مختصرًا.

(٢) البخاري «الفتح (١٢/ ٦٨٢٧، ٦٨٢٨) واللفظ له. ومسلم (١٦٩٧، ١٦٩٨).

(٣) البخاري «الفتح (١٠/ ٥٥٧٨) واللفظ له. ومسلم (٥٧).

(٤) الغلول: أخذ شيء من الغنائم دون إذن من الإمام.

(٥) فشا: انتشر وكثر وقوعه.

الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم[١]، ولا خَتَرَ[٢] قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو»[٣].

وعن عبد الله بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا نعايا العرب، يا نعايا العرب**[٤]، **إن أخوف ما أخاف عليكم الزنا والشهوة الخفية**»[٥].

وانتشار الزنا له ارتباط مباشر بترك النهي عن المنكر، فعن أنس بن

---

(١) فشا فيهم الدم: كثر القتل.

(٢) ختر قوم بالعهد: نقضوه، والختَّار هو الخائن، وفي القرآن العظيم: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان: ٣٢] أي خائن للعهد كافر بالمُنعم.

(٣) الموطأ (٢/ ٣٦٧) واللفظ له، وقال ابن عبد البر: مثله لا يقال رأيًا. والبيهقي (٣/ ٣٤٦) وقال الألباني: مثله لا يقال بالرأي، «الصحيحة (١/ ١٧٠).

(٤) كناية عن الموت المقبل عليكم فيكثر نعيكم، والمقصود: التحذير.

(٥) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧١) وقال: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح. قال أبو عبيد رحمه الله تعالى: «قوله: «**الشهوة الخفية**» قد اختلف الناس فيها، فذهب بها بعضهم إلى شهوة النساء وغير ذلك من الشهوات، وهو عندي ليس بمخصوص بشيء واحد، ولكنه في كل شيء من المعاصي يضمره صاحبه ويصرّ عليه، وإنما هو الإصرار وإن لم يعمله، وقال بعضهم: هو الرجل يصبح معتزمًا على الصيام للتطوع ثم يجد طعامًا طيبًا فيفطر من أجله». انظر: غريب الحديث لأبي عبيد (٤/ ١٧١). قلت: والأظهر أنه يعمّ كل شهوة خفية محرمة، ومن أعظمها الرياء، والعزم على الفجور ونحو ذلك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قيل يا رسول الله: متى نترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «**إذا ظهر فيكم ما ظهر في الأمم قبلكم**» قلنا: يا رسول الله، وما ظهر في الأمم قبلنا؟ قال: «**المُلْكُ في صغاركم**(١)**، والفاحشةُ في كباركم**(٢)**، والعلم في رذالتكم**»(٣)(٤).

فالذنوب بعامة والفاحشة خاصة من ذرائع العذاب بالأمراض وغيرها، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال: «أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين؛ خمسٌ إذا ابتليتم بهنّ، وأعوذ بالله أن تدركوهنّ: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين**(٥) **وشدة المؤونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله، إلا سلّط الله عليهم عدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما**

---

(١) في صغاركم: أي إن الملوك يكونون صغار الناس سنًّا، غير مجربين للأمور، أو ضعافهم عقلًا.

(٢) في كباركم: أي أن الفاحشة وهي الزنا تنتشر وتفشو إلى أن توجد في الكبار أيضًا.

(٣) والعلم في رذالتكم: إذا كان العلم في الفساق، أو الذين لم يتمكن منهم العلم والإيمان والحياء فلا يصونون العلم حق صيانته.

(٤) أحمد (٣/ ١٨٧)، وابن ماجه (٤٠١٥) واللفظ له. وقال في الزوائد: إسناده صحيح. رجاله ثقات.

(٥) أي: القحط.

لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيّروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم»(١).

ومن أشد مفاسد الزنا اختلاط الأنساب بنسبة أولاد الزنا لغير آبائهم، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول حين نزلت آية الملاعنة: «**أيما امرأة أدخلت على قوم رجلًا ليس منهم فليست من الله في شيء، ولا يدخلها الله جنته. وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عز وجل منه، وفضحه على رؤوس الأولين والآخرين يوم القيامة**»(٢).

وتشتد عقوبة الذنب إذا اكتنفته أمور تزيد حرمته كالزنا بامرأة مجاهد، فعن بريدة بن الحصيب الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلًا من المجاهدين في أهله، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنُّكُم؟**»(٣).

وقوله: «**فما ظنّكم**»: يعني ما تظنّون في رغبته في أخذ حسناته والاستكثار

---

(١) ابن ماجه (٤٠١٩) واللفظ له. وقال في الزوائد»: هذا حديث صالح للعمل به. والحاكم (٤/ ٥٤٠) وقال: صحيح، ووافقه الذهبي. وذكره الألباني في صحيح الجامع (٧٩٧٨). والصحيحة (١٠٦)، وعزاه أيضًا إلى «الحلية»، ومسند الروياني».

(٢) النسائي (٦/ ١٧٩، ١٨٠) واللفظ له. وأبو داود (٢٢٦٣). والحاكم (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣) وقال: صحيح. ووافقه الذهبي.

(٣) مسلم (١٨٩٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

منها في ذلك المقام، ومعناه لا يُبقي منها شيئًا إن أمكنه.

والإصرار على فاحشة الزنا من أسباب المسخ عياذًا بالله تعالى، فعن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ليكوننّ من أمتي أقوام يستحلون الحِرَ[١] والحرير والخمر والمعازف، ولينزلنّ أقوام إلى جنب عَلَمٍ يروح عليهم[٢] بسارحة[٣] لهم، يأتيهم[٤] لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غدًا. فيبيّتهم اللهُ[٥] ويضع العلم[٦]، ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة**»[٧].

وكان الصحابة أحرص ما يكونون على إعفاف من تحت أيديهم حتى من

---

(١) الحِر: هو الفرج. والمعنى يستحلون الزنا.

(٢) أي: الراعي.

(٣) بسارحة: هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى رعيها، وتروح أي ترجع بالعشي.

(٤) يعني الفقير، وفيه بُعدهم عن مدافعة أسباب غضب الله تعالى بصدقة يتبعها توبة، والله المستعان.

(٥) فيبيِّتهم الله: أي: يهلكهم ليلًا، والبيات: هجوم العدو ليلًا.

(٦) العَلَم: الجبل العالي. والمراد: أنه يُخسف به وبما حوله، فيجتمع عليهم مسخ وخسف، عياذًا بالله تعالى. قال الخطابي رحمه الله تعالى في أعلام الحديث (شرح صحيح البخاري) ٣/٢٠٩: «العَلَم: الجبل المرتفع. وفيه بيان أن المسخ قد يكون في هذه الأُمة وكذلك الخسف، كما كانا في سائر الأمم، خلاف قول من زعم أن ذلك لا يكون وإنما مسخها بقلوبها».

(٧) البخاري، الفتح (١٠/ ٥٥٩٠).

المماليك، وكان ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا يدعو غلمانه غلامًا غلامًا فيقول: «ألا أُزوّجك؟ ما من عبد يزني إلا نزع الله منه نور الإيمان»(١).

وقال خويلد بن نوفل الكلابي يعيب على الحارث بن أبي شمر الغساني الزنا:

يا أيُّهَا الملِكُ المَخُوفُ أمَا تَرَى ... ليلًا وصبحًا كيف يختلفانِ؟
هل تستطيعُ الشمسَ أنْ تأتي بها ... ليلًا وهلْ لكَ بالمليك يَدَانِ؟
واعلَمْ وأَيقِنْ أنّكَ مَيِّتٌ ومُحَاسَبٌ ... واعلمْ بأنّكَ مَا تَدِينُ تُدَان

والله المستعان، فالناصح والمنصوح عند ربهما الآن! نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

وقال المنذري رحمه الله تعالى: «صحَّ أن مدمن الخمر إذا مات لقي الله كعابد وثن، ولا شك أن الزنا أشد وأعظم عند الله من شرب الخمر»(٢).

وقال الذهبي رحمه الله: «ورد في الزبور مكتوبًا: إنَّ الزُّناة مُعلّقون بفروجهم في النار يُضربون عليها بسياط من حديد، فإذا استغاث من الضرب؛ نادته الزبانية: أين كان هذا الصوت وأنت تضحك وتفرح وتمرح، ولا تراقب الله تعالى ولا تستحي منه؟»(٣).

---

(١) الفتح (١٢/ ٦٠).
(٢) الترغيب والترهيب (٣/ ٢٧٧).
(٣) الكبائر (٥١).

من مضار الفاحشة:

(١) الزنا وعمل قوم لوط يجمع خلال الشر كلها من قلة الدين وذهاب الورع وفساد المروءة وقلة الغيرة.

(٢) فيهما غضب الرب تبارك وتعالى بانتهاك حرمه وإفساد خلقه.

(٣) خبث النفس وإذهاب الحياء ورفع الحشمة.

(٤) سواد وجه صاحب الفاحشة وظلمته وما يعلوه من الكآبة والمقت الذي يبدو عليه للناظرين.

(٥) ظلمة القلب وطمس نوره.

(٦) الفقر اللازم لأن الله عز وجل مفقر الزناة.

(٧) الفاحشة تذهب حرمة فاعلها وتعرضه للحد في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

(٨) الفاحشة تسلب المرء أحسن الأسماء، وهي العفة والبر والأمانة، ويعطيه أضدادها كالفاجر والفاسق والزاني والخائن.

(٩) يفارق الزاني وصف الطيب الذي يتسم به أهل العفاف، ويتبدل به الخبث الذي يتصف به الزناة، وقد حرم الله الجنة على كل خبيث وجعلها مأوى للطيبين.

(١٠) من أضرار الزنا على المجتمع: اختلاط الأنساب واشتباهها، ويؤدّي إلى ضيق في الأرزاق وخراب في الديار، وإيقاع الوحشة بين أبناء المجتمع.

(١١) تسبب الفاحشة ظهور أمراض وبلايا لا يعلمها إلا الله عز وجل ومنها مرض فقد المناعة (الإيدز) الذي شاع في المجتمعات الفاجرة هذه الأيام.

(١٢) في زنا الزاني جناية على ذريته بجلب العار والخزي لهم من ناحية، وتعريضهم -إلا من رحم الله- لمثل هذه الفعلة الشائنة من ناحية أخرى، وكذلك فاحشة قوم لوط[١]. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(١) انظر: غذاء الألباب (١/ ٤٤٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قبحُ المعصية

يكفي في خبث المعصية قبحُ مُسمَّاها؛ لأنّها غرورٌ واقتحامٌ لحُرمةِ نهيِ الجبّارِ جلّ جلاله، ونوعُ كفرٍ لنِعَمِهِ التي لا تُعَدُّ ولا تُحصى، فكيف نعصي من لا قوام لنا إلّا به، ولا خير عندنا إلا منه، ولا يصرف الشرَّ سواه؟!

اللّهم إنْ تغفرْ تغفرْ جمًّا وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألمّا

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: «وكثيرٌ من الناس يطيعون أنفسهم ويعصون عقولهم، ويتّبعون أهواءهم، ويرفضون أديانهم، ويتجنّبون ما حضّ الله تعالى عليه، ورتَّبه في الألباب السليمة؛ من العفّة وترك المعاصي ومقارعة الهوى، ويخالفون الله ربهم، ويوافقون إبليس فيما يحبه من الشهوة المُعطِبة، فيواقعون المعصية في حبّهم.

وقد علّمنا أنّ الله عز وجل ركّب في الإنسان طبيعتين متضادّتين:

إحداهما: لا تشير إلا بخير، ولا تحضُّ إلا على حسن، ولا يتصوّر فيها إلا كلّ أمرٍ مَرْضيٍّ، وهي العقل، وقائدُه العدل.

والثانية: ضدٌّ لها، لا تشير إلا إلى الشهوات، ولا تقود إلا إلى الردى، وهي النفس، وقائدُها الشهوة، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

وكنَّى بالقلب عن العقل فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]. وخاطب أولي الألباب.

فهاتان الطبيعتان قطبان في الإنسان، وهما قوتان من قوى الجسد الفعّالِ بهما، ومطرحان من مطارح شعاعات هذين الجوهرين العجيبين.

ففي كلّ جسد منهما حظّه على قدر مقابلته لهما في تقدير الواحد الصمد، تقدست أسماؤه، حين خلقه وهيّأه؛ فهما يتقابلان أبدًا ويتنازعان دأبًا، فإذا غلب العقل النفس؛ ارتدع الانسان، وقمع عوارضه المدخولة، واستضاء بنور الله، واتبع العدل.

وإذا غلبت النفس العقل؛ عميت البصيرة، ولم يتّضح الفرق بين الحسن والقبيح، وعظم الالتباس، وتردى في هوّة الردى ومهواة الهلكة.

وبهذا حسن الأمر والنهي، ووجب الامتثال، وصحّ الثواب والعقاب، واستحق الجزاء.

والروح واصلٌ بين هاتين الطبيعتين، وموصل ما بينهما، ومحلّ الالتقاء بهما، وإنّ الوقوف عند حدّ الطاعة لمعدوم إلا بطول الرياضة وصحّة المعرفة ونفاذ التمييز، ومع ذلك اجتناب التعرّض للفتن ومداخلة الناس جملة، والجلوس في البيوت، وبالحري أن تقع السلامة المضمونة، أو يكون الرجل حصورًا لا أرب له في النساء، ولا جارحة له تعينه عليهن.

وقديمًا قالوا: «من وُقي شرَّ لَقْلَقِهِ وقَبْقَبِه وذَبْذَبِهِ فقد وُقِيَ شرَّ الدّنيا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بحذافيرها»، واللقلق: اللسان، والقبقب: البطن، والذبذب: الفرج.

وليعلم المستخفّ بالمعاصي، المتّكل على التسويف، المعرض عن طاعة ربه: أنّ إبليس كان في الجنة مع الملائكة المقرّبين، فلمعصية واحدة وقعت منه؛ استحقّ لعنة الأبد وعذاب الخلد، وصُيِّرَ شيطانًا رجيمًا، وأُبعد عن رفيع المقام!

وهذا آدم ﷺ بذنب واحد أُخرج من الجنة إلى شقاء الدنيا ونكدها؛ ولولا أنّه تلقّى من ربه كلمات وتاب عليه؛ لكان من الهالكين.

أفَتَرَى هذا المغترّ بالله ربِّه وبإملائه ليزداد إثمًا يظن أنه أكرم على خالقه من أبيه آدم الذي خلقه ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته الذين هم أفضل خلقه عنده أو عقابه اعزّ عليه من عقوبته إياه؟ كلّا، ولكن استعذاب التمني، واستيطاء مركب العجز، وسخف الرأي؛ قائدةٌ أصحابَهَا إلى الوبال والخزي.

ولو لم يكن عند ركوب المعصية زاجرٌ من نهي الله تعالى، ولا حامٍ من غليظ عقابه؛ لكان في قبيح الأحدوثة عن صاحبه وعظيم الظلم الواقع في نفس فاعله أعظم مانع وأشدّ رادع لمن نظر بعين الحقيقة، واتّبع سبيل الرّشد، فكيف والله عز وجل يقول: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان:٦٨، ٦٩].

وإنّ في الزنا من إباحة الحريم، وإفساد النسل، والتفريق بين الأزواج الذي عظّم الله أمره، ما لا يهون على ذي عقل أو من له أقلّ خلاق. وإنّ أعظم ما يأتي به العبد هتكَ سترِ الله عز وجل في نفسه وفي عباد الله.

وأمّا فعل قوم لوط فشنيع بشيعٌ، قال الله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]. وقد قذف الله فاعِليه بحجارة من طين مسوّمة.

ومالكٌ رحمه الله يرى على الفاعل والمفعول به الرجم، أُحصنا أم لم يُحصنا، واحتجّ بعض المالكيين في ذلك بأنّ الله عز وجل يقول في رجمه فاعليه بالحجارة: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، فوجب بهذا أنّه من ظلم الآن بمثل فعلهم قربت منه.

وقد أحرق أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيه بالنار(١)، أحرقه بالنار لأنّه يُؤتى في دبره كما تؤتى المرأة.

وإنّ عن المعاصي لمذاهبٌ للعاقلِ واسعةٌ، فَمَا حرّمَ اللهُ شيئًا إلا وقد عوّض عباده من الحلال ما هو أحسن من المحرم وأفضل، لا إله إلا هو.

صُنِ النّفسَ عمّا عابَهَا وارفُضِ الهَوَى ... فإنَّ الهوى مفتاحُ بابِ المهالكِ
رأيتُ الهوى سهلَ المبادي لذيذها ... وعُقباهُ مُرُّ الطَّعمِ ضَنْكُ المَسَالِكِ
فما لذّةُ الإنسانِ والموتُ بعدَهَا ... ولو عاشَ ضِعْفَي عمْرِ نوحِ بنِ لامِكِ
فلا تتّبعْ دارًا قليلًا لباثهَا ... فقدْ أنْذَرَتْنَا بالفناءِ المُوَاشِكِ
ومَن عَرَفَ الأمرَ الذي هو طالبٌ ... رَأَى سَفَهًا مَا في يَدَيْ كُلَّ مَالِكِ

(١) انظر المحلى (١١/ ٣٨٠ – ٣٨١)، وأبو محمد بن حزم رحمه الله لا يرى ذلك، وإنما يرى التعزيز فقط، وانظر أيضًا: ذم الهوى (٢٠٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومن عرف الرحمنَ لم يعصِ أمرَهُ ... ولو أنَّهُ يُعْطَى جميع المَمَالِكِ
سبيلُ التُّقَى والنسكِ خيرُ المسالكِ ... وسالكهَا مستبصرًا خيرُ سَالِكِ
ويا نفسُ جِدِّي لا تملِّي وشَمِّرِي ... لِنيلِ سرورِ الدَّهْرِ فيمَا هُنَالِكِ
فلو أعملَ النّاسُ التفكُّرَ في الذي ... لهُ خُلِقُوا مَا كَان حَيٌّ بِضَاحِكِ[1]

ثمرات العفّة

١ ـ سلامة المجتمع من الفواحش: فالمجتمع الذي يتصف بالعفة يكون بعيدًا من الفواحش والرذائل.

٢ ـ أنّ العفيف من السبعة الذين يظلهم الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلا ظلّه. فمنهم: «... **ورجلٌ طلَبَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنصِبٍ وجمالٍ، فقال: إني أخافُ اللهَ**»[2].

٣ ـ العفافُ سبب للنجاة من الابتلاءات والمضائق، وتفريج للكربات: فقد جاء في قصة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة، أنّ أحدَهم توسّلَ إلى الله تعالى بقوله: «**اللّهم إن كنتَ تعلمُ أنّه كان لي ابنة عمٍّ مِن أحبّ الناس إليّ، وأنّي راودتها عن نفسها فأبت إلّا أن آتيها بمئة دينار؛ فطلبتُها حتى قدرت، فأتيتُها بها فدفعتها إليها، فأمكنَتْنِي من نفسها. فلما قعدتُ بين رجليها فقالت: اتّق الله، ولا تَفُضَّ الخاتم إلا بحقِّهِ[3]! فقمتُ وتركتُ المئة دينار، فإنْ كنت**

---

(١) انظر المحلى (١١/ ٣٨٠ – ٣٨١)، وأبو محمد بن حزم رحمه الله لا يرى ذلك، وإنما يرى التعزيز فقط، وانظر أيضًا: «ذم الهوى (٢٠٢).

(٢) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٣) أي: لا تجامع وتفض الختان إلا عن زواج صحيح.

تعلم أنّي فعلتُ ذلك من خشيتك؛ ففرج عنا، ففرّج الله عنهم فخرجوا»[(١)].

٤ ـ إعانة الله تعالى لمن أراد العفاف: فالله سبحانه وتعالى قد تكفّل بمقتضى وعده الذي لا يُخْلَف إعانة من يريد النكاح بقصد العفاف، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة حقٌّ على الله عزَّ وجل عونُهُمْ: المكاتَبُ الذي يريدُ الأداءَ، والناكحُ الذي يريد العفافَ، والمجاهدُ في سبيل الله**»[(٢)(٣)]. وتأمل معية العفيف للمجاهد؛ فكلاهما في سبيل الله تعالى.

(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) الترمذي (١٦٥٥). وجوَّد إسناده ابن باز في حاشية البلوغ (٧٦٥).

(٣) وانظر: موسوعة الأخلاق (العفة).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عوائقُ في طريق العفة

المعوقات التي تقف في طريق العفة في هذا الزمن كثيرة جدًّا، وقد أُعلنت شياطين الإنس الحربَ على العفّاف، وتضاعفت جهود أهل الباطل، حتى تنتشر الرذيلة، وتشيع الفاحشة في المجتمع المسلم، واتخذوا الوسائل العديدة فمنها:

١ ـ وسائل الإعلام:

إنَّ الناظر إلى أغلب وسائل الإعلام الحديثة الموجودة في البلاد الإسلامية فضلًا عن غيرها، يجد فيها الكثير من الفساد والإفساد، سواء كان في القنوات الفضائية، أو الشبكة العنكبوتية وما حوته من مواقع ومنتديات وتواصل اجتماعي، فتجد كثيرًا منها تبث السموم الأخلاقية وتنشر الرذيلة المجتمعية، وتدعو إلى خلاف العفة والفضيلة.

٢ ـ الاختلاط والخلوة:

من أشدّ موارد الشرّ بين الجنسين الاختلاط: «إن العِفَّة حجاب يُمَزِّقه الاختلاط، ولهذا صار طريق الإسلام التفريق والمباعدة بين المرأة والرجل الأجنبي عنها، فالمجتمع الإسلامي مجتمع فردي لا زوجي، فللرجال مجتمعاتهم، وللنساء مجتمعاتهنَّ، ولا تخرج المرأة إلى مجتمع الرجال إلا لضرورة أو حاجة بضوابط الخروج الشرعية.

كل هذا لحفظ الأعراض والأنساب، وحراسة الفضائل، والبعد عن الرِّيب والرذائل، وعدم إشغال المرأة عن وظائفها الأساس في بيتها.

ولذا حُرِّم الاختلاط، سواء في التعليم، أم في العمل، والمؤتمرات، والندوات، والاجتماعات العامة والخاصة، وغيرها؛ لما يترتب عليه من هتك الأعراض ومرض القلوب، وخطرات النفس، وخنوثة الرجال، واسترجال النساء، وزوال الحياء، وتقلص العفة والحشمة، وانعدام الغيرة»(١).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعن عقبة بن عامر أنّ رسول الله ﷺ قال: «**إيّاكم والدخول على النساء!**»، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: «**الحمو الموت**»(٢).

وقال ﷺ: «**لا يخلوَنَّ رجلٌ بامرأةٍ، ولا تسافِرَنَّ امرأةٌ وإلا معها محرمٌ**»(٣).

وقد ذكر الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله تعالى أدلّة تحريم الاختلاط مجملة ومفصلة فقال: «اختلاط النساء بالأجانب في دور العلم والحوانيت والمكاتب والمستشفيات والحفلات ونحو ذلك؛ فهذا في الحقيقة قد يظن السائل في بادئ الأمر أنه لا يؤدي إلى افتتان كل واحد من النوعين بالآخر. ولكشف حقيقة هذا القسم فإنا نجيب عنه من طريقين مجمل ومفصل.

---

(١) حراسة الفضيلة» لبكر أبو زيد رحمه الله (٩٧ – ٩٨).

(٢) البخاري (٥٢٣٢)، ومسلم (٢١٧٢). والحمو: هو قريب الزوج، وخطورته في بعده عن الريبة وقربه من غير ذات المحارم.

(٣) البخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أما المجمل: فهو أن الله تعالى جبل الرجال على القوة والميل إلى النساء، وجبل النساء على الميل إلى الرجال مع وجود ضعف ولين.

فإذا حصل الاختلاط نشأ على ذلك آثار تؤدّي إلى حصول الغرض السيّء، لأنّ النفوسَ أمّارةٌ بالسوء، والهوى يعمي ويُصِمُّ، والشيطانُ يأمر بالفحشاء والمنكر.

وأمّا المفصّل: فالشريعة مبنيّة على المقاصد ووسائلها، ووسائل المقصود الموصلة إليه لها حكمه، فالنساء مواضع قضاء وطر الرجال، وقد سدّ الشارع الأبواب المفضية إلى تعليق كل فرد من أفراد النوعين بالآخر. وينجلي ذلك بما نسوقه لك من الأدلة من الكتاب والسنة.

أما الأدلة من الكتاب فستة:

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

وجه الدلالة: أنه لما حصل اختلاط بين امرأة عزيز مصر وبين يوسف عليه السلام ظهر منها ما كان كامنًا، فطلبت منه أن يوافقها، ولكن أدركه الله برحمته فعصمه منها. وذلك في قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٤].

وكذلك إذا حصل اختلاط بالنساء اختار كل من النوعين من يهواه من

النوع الآخر، وبذل بعد ذلك الوسائل للحصول عليه.

الدليل الثاني: أمر الله الرجال بغض البصر، وأمر النساء بذلك فقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ﴾ [النور: ٣٠، ٣١].

وجه الدلالة من الآيتين: أنه أمر المؤمنين والمؤمنات بغض البصر، وأمره يقتضي الوجوب، ثم بين تعالى أن هذا أزكى وأطهر. ولم يعف الشارع إلا عن نظر الفجأة.

فعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال له: «**يا عليّ، لا تُتبع النظرةَ النظرة، فإنّما لك الأولى، وليست لك الآخرة**»(١). وبمعناه عدة أحاديث.

وما أمر الله بغض البصر إلا لأن النظر إلى من يحرم النظر إليه زنًا، فروى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ أنه قال: «**العينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا**»(٢).

وإنما كان زنًا لأنه تمتع بالنظر إلى محاسن المرأة ومؤد إلى دخولها في قلب ناظرها، فتعلق في قلبه، فيسعى إلى إيقاع الفاحشة بها. فإذا نهى الشارع عن النظر إليهن لما يؤدي إليه من المفسدة وهو حاصل في الاختلاط، فكذلك الاختلاط

---

(١) أحمد (٥/ ٣٥١)، وأبو داود وحسنه الألباني. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري ٨/ ٦٧ (٦٢٤٣)، ومسلم ٨/ ٥٢ (٢٦٥٧) (٢١). واللفظ لمسلم.

ينهى عنه لأنه وسيلة إلى ما لا تحمد عقباه من التمتع بالنظر والسعي إلى ما هو أسوأ منه.

الدليل الثالث: الأدلة التي سبقت في أن المرأة عورة، ويجب عليها التستر في جميع بدنها؛ لأنّ كشف ذلك أو شيء منه يؤدي إلى النظر إليها، والنظر إليها يؤدي إلى تعلق القلب بها، ثم تبذل الأسباب للحصول عليها، وكذلك الاختلاط.

الدليل الرابع: قال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

وجه الدلالة أنه تعالى منع النساء من الضرب بالأرجل وإن كان جائزًا في نفسه لئلا يكون سببًا إلى سمع الرجال صوت الخلخال فيثير ذلك دواعي الشهوة منهم إليهن. وكذلك الاختلاط يمنع لما يؤدي إليه من الفساد.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

فسرها ابن عباس وغيره: «هو الرجل يدخل على أهل البيت بيتهم، ومنهم المرأة الحسناء وتمرُّ به، فإذا غفلوا لَحَظَ، فإذا فطنوا غَضَّ، وقد اطّلع الله من قلبه أنه وَدَّ أن لو اطّلع على فرجها، وأنّه لو قدر عليها لزنى بها»(١).

(١) تفسير ابن كثير (٧ / ١٣٧)، ورواه ابن أبي حاتم، وابن أبي شيبة، وابن المنذر. وفي بعض الروايات بدون زيادة: «وأنّه لو قدر عليها لزنى بها».

وجه الدلالة أنّ الله تعالى وصف العين التي تسارق النظر إلى ما لا يحلّ النظر إليه من النساء بأنها خائنة فكيف بالاختلاط.

الدليل السادس: أنه أمرهن بالقرار في بيوتهن، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وجه الدلالة: أن الله أمر أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات المطهرات الطيبات بلزوم بيوتهن، وهذا الخطاب عام لغيرهن من نساء المسلمين، لما تقرر في علم الأصول أن خطاب المواجهة يعم إلا ما دل الدليل على تخصيصه.

وليس هناك دليل يدل على الخصوص، فإذا كن مأمورات بلزوم البيوت إلا إذا اقتضت الضرورة خروجهن، فكيف يقال بجواز الاختلاط على نحو ما سبق؟! على أنه كثر في هذا الزمان طغيان النساء وخلعهن جلباب الحياء، واستهتارهن بالتبرج والسفور عند الرجال الأجانب والتعري عندهم، وقل الوازع عمن أنيط به الأمر من أزواجهن وغيرهم.

وأما الأدلة من السنة فإننا نكتفي بذكر عشرة:

الأول: عن أم حميد امرأة أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها جاءت النبي ﷺ فقالت يا رسول الله: إني أحب الصلاة معك. قال: «**قد علمتُ أنك تحبين الصلاة معي، وصلاتُكِ في بيتك خيرٌ من صلاتِكِ في حُجْرَتِكِ، وصلاتُك في حجرتك خير من صلاتك في مسجد قومك، وصلاتُك في مسجد قومك خيرٌ من صلاتك في مسجدي**». قال فأمرت فبني لها مسجد في أقصى بيت من بيوتها

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأظلمه، فكانت والله تصلي فيه حتى ماتت(١).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**إنّ أحبَّ صلاة المرأة إلى الله في أشدِّ مكان من بيتها ظلمة**»(٢).

وبمعنى هذين الحديثين عدة أحاديث تدل على أن صلاة المرأة في بيتها أفضل من صلاتها في المسجد.

وجه الدلالة: أنه إذا شرع في حقها أن تصلي في بيتها وأنه أفضل حتى من الصلاة في مسجد الرسول ﷺ ومعه، فلئن يمنع الاختلاط من باب أولى.

الثاني: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خير صفوف الرجال أولها، وشرها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرها أولها**»(٣).

وجه الدلالة: أن الرسول ﷺ شرع للنساء إذا أتين إلى المسجد فإنهن ينفصلن عن الجماعة على حده، ثم وصف أول صفوفهن بالشر والمؤخر منهن بالخير.

وما ذلك إلا لبعد المتأخرات عن الرجال عن مخالطتهم ورؤيتهم وتعلق القلب بهم عند رؤية حركاتهم وسماع كلامهم، وذم أول صفوفهن لحصول

---

(١) أحمد (٢٧٠٩٠)، وحسنه الأرناؤوط.

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١٦٩٢)، وأشار إلى تضعيفه بقوله: «وفي القلب منه»، وضعفه الألباني بأخرة في السلسلة (٩ / ٤٤٤) بعد تحسينه له في صحيح ابن خزيمة.

(٣) مسلم (٢/٣٢) (٤٤٠) (١٣٢).

عكس ذلك، ووصف آخر صفوف الرجال بالشرّ إذا كان معهم نساء في المسجد؛ لفوات التقدّم والقرب من الإمام وقربه من النساء اللاتي يُشغلن البال، وربما أفسدن به العبادة، وشَوَّشْنَ النيةَ والخشوع.

فإذا كان الشرع توقع حصول ذلك في مواطن العبادة مع أنه لم يحصل اختلاط؛ فحصول ذلك إذا وقع اختلاط من باب أولى، فيمنع الاختلاط من باب أولى.

الثالث: عن زينب زوجة عبد الله ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: «**إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمسّ طيبًا**»(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، ولكن ليخرجن وهن تَفِلَات**»(٢).

قال ابن دقيق العيد: «فيه حرمة التطيب على مريدة الخروج إلى المسجد لما فيه من تحريك داعية الرجال وشهوتهم، وربما يكون سببًا لتحريك شهوة المرأة أيضًا». قال: «ويلحقن بالطيب ما في معناه كحسن الملبس والحلي الذي يظهر أثره والهيئة الفاخرة». وقال الحافظ ابن حجر: «وكذلك الاختلاط بالرجال».

---

(١) مسلم (٢/٣٣).

(٢) أبو داود (٥٦٥)، وصححه الألباني. ومعنى تفلات: أي غير متطيبات، واحدتها تَفِلَة، ولم يُصب من فسرها بنتن الرائحة، فالشريعة لا تأمر بمثل ذلك، ويكفي للامتثال ألا يجد الرجال لها طيبًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الرابع: روى أسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما تركت بعدي فتنة هي أضرّ على الرجال من النساء**»(١).

وجه الدلالة: أنه وصفهن بأنهن فتنة، فكيف يجمع بين الفاتن والمفتون؟! هذا لا يجوز.

الخامس: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنّ الدنيا حلوةٌ خَضِرَةٌ، وإنّ الله مستخلِفُكُمْ فيها فناظرٌ كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإنّ أولَ فتنة بني إسرائيل في النساء**»(٢).

وجه الدلالة: أنّ النبي ﷺ أمر باتّقاء النساء، وهو أمر يقتضي الوجوب، فكيف يحصل الامتثال مع الاختلاط؟! هذا لا يجوز.

السادس: عن حمزة بن أسيد الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع النبي ﷺ يقول وهو خارج من المسجد، فاختلط الرجال مع النساء في الطريق، فقال النبي ﷺ للنساء: «**استأخرن، فإنّه ليس لكن أن تحققن الطريق، عليكنّ بحافَّات الطريق**»، فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى إن ثوبها ليتعلق بالجدار من لصوقها(٣).

قال ابن الأثير في «النهاية في غريب الحديث»: «يحققن الطريق: هو أن

---

(١) البخاري ٧/ ١١ (٥٠٩٦)، ومسلم ٨/ ٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢) مسلم (٧١٢٤).

(٣) سنن أبي داود (٥٢٧٤) (٤ / ٥٤٣)، وحسنه الألباني.

يركبن حقَّها، وهو وسطها».

وجه الدلالة: أنّ الرسول ﷺ إذا منعهن من الاختلاط في الطريق لأنه يؤدي إلى الافتنان، فكيف يقال بجواز الاختلاط في غير ذلك؟!

السابع: عن نافع عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ لما بنى المسجد جعل بابًا للنساء، وقال: «**لا يلج من هذا الباب من الرجال أحد**»(١).

وجه الدلالة: أن الرسول ﷺ منع اختلاط الرجال والنساء في أبواب المساجد دخولًا وخروجًا، ومنع أصل اشتراكهما في أبواب المسجد سدًّا لذريعة الاختلاط، فإذا منع الاختلاط في هذه الحال، ففيه ذلك من باب أولى.

الثامن: عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سلَّم من صلاته قام النساء حين يقضي تسليمه، ومكث النبي ﷺ في مكانه يسيرًا»(٢).

وفي رواية: «كان يسلم فتنصرف النساء فيدخلن بيوتهن من قبل أن ينصرف

---

(١) الطيالسي في مسنده (١٨٢٩)، وضعفه الألباني في السلسلة (١٢ / ٩٦٣)، وقال: وعن نافع به بلفظ: «**لو تركنا هذا الباب للنساء**». قال نافع: فلم يدخل منه ابن عمر حتى مات. أخرجه أبو داود (٤٦٢، ٥٧١). وأعله بالوقف، والراجح عندي الرفع كما بينته في صحيح أبي داود (٤٨٣).
والخلاصة: أن النهي الصريح عن الدخول من باب النساء رفعه عن النبي ﷺ لا يصح. والصحيح حضه على ذلك بقوله: «**لو تركناه لِلنِّسَاءِ**». وَاللَّه أعلم.

(٢) البخاري (٨٣٧)، ثم قال البخاري: قال ابن شهاب: فأرى ـ والله أعلم ـ أنّ مكثه لكي ينفذ النساء قبل أن يدركهن من انصرف من القوم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

رسول الله ﷺ». وفي رواية ثالثة: «كُنَّ إذا سلّمْنَ من المكتوبة قُمْنَ، وثَبَتَ رسولُ الله ﷺ ومَنْ صلّى من الرجال ما شاء الله، فإذا قام رسول الله ﷺ قام الرجال»(١).

وجه الدلالة: أنه منع الاختلاط بالفعل، وهذا فيه تنبيه على منع الاختلاط في غير هذا الموضع.

التاسع: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال: «**لأن يزحم رجل خنزيرًا متلطخًا بطين وحمأة؛ خيرٌ له من أن يزحم منكبه منكب امرأة لا تحلّ له**»(٢).

الدليل العاشر: عن معقل ابن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**لأن يُطعن في رأس أحدكم بمخيط من حديد خير من أن يمسّ امرأةً لا تحلّ له**»(٣).

وجه الدلالة من الحديثين: أنه ﷺ منع مماسة الرجل للمرأة بحائل وبدون حائل إذا لم يكن محرمًا لها، بما في ذلك من الأثر السيء، وكذلك الاختلاط فمُنع ذلك.

---

(١) البخاري (٨٦٦)، وأحمد (٢٦٧٣٠).

(٢) الطبراني، كما في مجمع الزوائد (٤ / ٣٢٦)، وقال: فيه علي بن يزيد وهو ضعيف جدًّا. وعليه فعادت الأحاديث القائمة بالحجة إلى تسعة، وإن كان في الباب غيرُها، وكأنه طلب الاختصار، وفي ذلك مقنع لمن كان له اهتداء لا اهتواء، بل في الواحد منها حجة قاطعة لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٣) الطبراني في الكبير (٤٨٦)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٠٤٥).

فمن تأمل ما ذكرناه من الأدلة؛ تبيّن له أنّ القول بأنّ الاختلاط لا يؤدّي إلى فتنة إنما هو بحسب تصور بعض الأشخاص، وإلا فهو في الحقيقة يؤدي إلى فتنة، ولهذا منعه الشارع حسمًا لمادة الفساد.

ولا يدخل في ذلك ما تدعو إليه الضرورة، وتشتدّ الحاجة إليه، ويكون في مواضع العبادة، كما يقع في الحرم المكي والحرم المدني[1]، نسأل الله تعالى أن يهدي ضال المسلمين، وأن يزيد المهتدي منهم هدى»[2].

قلتُ: وفَرْقٌ بين الاختلاط المُنَظَّم المقصود كاختلاط الدراسة والعمل، وبين العارض غير المقصود كالطواف والمناسك والطرقات، فالفتنة والخطر بالأول أعظم وأشدّ مع عدم وجود المسوِّغ الشرعي أصلًا وعدم الحاجة لذلك، لكنه مرض القلوب مِن مرضى القلوب، والله الحافظ المستعان.

وقال ابن باز رحمه الله: «... وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وفي هذه الآيات الكريمات الدلالة الظاهرة على شرعية لزوم النساء لبيوتهن حذرًا من الفتنة بهن، إلا من حاجة تدعو إلى الخروج، ثم حذرهن سبحانه من التبرج تبرج

---

(١) والضرورة تُقدّر بقدرها.

(٢) فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم آل الشيخ (١٠ / ٢٦) باختصار يسير. وقد نقلتها اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء مقرَّة لها بتوقيع العلامتين الشيخ ابن باز والشيخ عبد الرزاق عفيفي. وانظر: فتاوى اللجنة الدائمة»، المجموعة الأولى (٢ / ٩٣)، ومجلة البحوث الإسلامية (٣٢ / ٩٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الجاهلية، وهو إظهار محاسنهن ومفاتنهن بين الرجال.

وقد بين الله سبحانه أنّ الحجاب أطهرُ لقلوب الجميع، فدل ذلك على أنّ زواله أقرب إلى نجاسةِ قلوب الجميع وانحرافهم عن طريق الحق، ومعلوم أنّ جلوس الطالبة مع الطالب في كرسي الدراسة من أعظم أسباب الفتنة.

ومَن زعم أن الأمر بالحجاب خاصٌّ بأمهات المؤمنين فقد أبعد النُّجْعَةَ وخالف الأدلة الكثيرة الدالة على التعميم وخالف قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾، فإنه لا يجوز أن يقال إن الحجاب أطهر لقلوب أمهات المؤمنين ورجال الصحابة دون من بعدهم!

ولا شك أنّ من بعدهم أحوج إلى الحجاب من أمهات المؤمنين ورجال الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لما بينهم من الفرق العظيم في قوة الإيمان والبصيرة بالحق.

فإنّ الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ رجالًا ونساء ومنهن أمهات المؤمنين هم خير الناس بعد الأنبياء، وأفضل القرون بنص الرسول ﷺ المخرج في الصحيحين.

فإذا كان الحجاب أطهر لقلوبهم فمن بعدهم أحوج إلى هذه الطهارة وأشدّ افتقارًا إليها ممن قبلهم؛ ولأنّ النصوص الواردة في الكتاب والسنة لا يجوز أنّ يُخصّ بها أحدٌ من الأمة إلا بدليل صحيح يدل على التخصيص، فهي عامة لجميع الأمة في عهده ﷺ وبَعْده إلى يوم القيامة.

لأنه سبحانه بعث رسوله ﷺ إلى الثقلين في عصره وبعده إلى يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

[الأعراف: ١٥٨].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ: ٢٨].

وهكذا القرآن الكريم لم ينزل لأهل عصر النبي ﷺ، وإنما أنزل لهم ولمن بعدهم ممن يبلغه كتاب الله كما قال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٞ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ وَلِيَعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

وقال عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩].

وكان النساء في عهد النبي ﷺ لا يختلطن بالرجال، لا في المساجد ولا في الأسواق الاختلاط الذي ينهي عنه المصلحون اليوم(١)، ويرشد القرآن والسنة وعلماء الأمة إلى التحذير منه حذرًا من فتنته.

بل كان النساء في مسجده ﷺ يصلّين خلف الرجال في صفوف متأخرة عن الرجال حذرًا من افتتان آخر صفوف الرجال بأول صفوف النساء، وكان الرجال في عهده ﷺ يُؤمرون بالتريّث في الانصراف حتى يمضي النساء ويخرجن من المسجد لئلا يختلط بهن الرجال في أبواب المساجد، مع ما هم عليه جميعًا رجالًا ونساء من الإيمان والتقوى، فكيف بحال من بعدهم؟!

وكانت النساء يُنهين أن يتحقّقن الطريق، ويُؤمرن بلزوم حافّات الطريق،

---

(١) أي الاختلاط المنظَّم المقصود، وكذلك التساهل في غير المقصود كما في الأسواق ونحوها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حذرًا من الاحتكاك بالرجال والفتنة بمماسّة بعضهم بعضًا عند السير في الطريق، وأَمَرَ الله سبحانه نساء المؤمنين أن يدنين عليهن من جلابيبهن حتى يُغطّين بها زينتهن حذرًا من الفتنة بهن، ونهاهن سبحانه عن إبداء زينتهن لغير من سمّى الله سبحانه في كتابه العظيم، حسمًا لأسباب الفتنة، وترغيبًا في أسباب العفّة، والبعد عن مظاهر الفساد والاختلاط.

فكيف يجوز لمؤمن أن يقول إنّ جلوس الطالبة بحذاء الطالب في كرسي الدراسة مثل جلوسها مع أخواتها في صفوفهن خلف الرجال؟! هذا لا يقوله من له أدنى مسكة من إيمان وبصيرة يعقل ما يقول.

هذا لو سلّمنا وجود الحجاب الشرعي، فكيف إذا كان جلوسها مع الطالب في كرسي الدراسة مع التبرج وإظهار المحاسن والنظرات الفاتنة والأحاديث التي تجرّ إلى الفتنة، فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

قال الله عز وجل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][(١)].

٣- تبرّج النساء:

تبرج النساء من الأسباب التي تعوق العفة؛ لذا أُمرت المرأة بالقرار في البيت، قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والتبرج إظهار الزينة، فبعدما كانت مسترة بالحجاب برَجَت

(١) فتاوى ابن باز (٤ / ٢٣٩) باختصار.

وبَرزت وظهرت. ومعنى تبرَّجَ أي: خرج من البُرْجِ، والمعنى: لا تخرجن من حصن التستر، ولا تبدين الزينة والمحاسن الواجب سَتْرُها سواء مما يُرى أو يُسمع أو يُشمّ، فممّا يرى كمحاسن كالوجه فهو الجامع لمكامن المحاسن، أو الكفِّ المبيّنة للون البشرة ونضارة الجسد ولين القدِّ، أو القدم ونحو ذلك مما يُباح للخاطب، لأنهنّ أدلّة على ما وراءهنّ من خفايا الجسد المستور، ويتبعُ ذلك العباءة، فلا يصحّ أن تتحجّب بما يفتن، وكم من حجاب محتاج إلى حجاب! والله تعالى لا يُغشُّ. أمّا ما يُسمع فكأصوات كالغنج ووسوسة الذهب والحليّ ونحوها، أمّا ما يُشمُّ فكالطيب وكالروائح الخاصة بالنساء ونحو ذلك مما يحرّك كوامن شهوة الرجال.

ويقال: سفرت المرأة: إذا كشفت وجهها، وحسرت رأسها: إذا كشفته، وتبرجت: إذا أظهرت زينتها، وبالله التوفيق.

وبالجملة؛ فالمؤمنة إذا خرجت التزمت بالضوابط الشرعية للخروج، ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

قال السعدي في تفسيره لهذه الآية: «أي: لا يضربن الأرض بأرجلهن، ليصوِّت ما عليهن من حلي، كخلاخل وغيرها، فتعلم زينتها بسببه، فيكون وسيلة إلى الفتنة.

ويؤخذ من هذا ونحوه قاعدة سدّ الوسائل، وأنَّ الأمر إذا كان مباحًا، ولكنه يفضي إلى محرم، أو يخاف من وقوعه، فإنه يمنع منه، فالضرب بالرجل في

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الأرض الأصل أنه مباح، ولكن لما كان وسيلة للعلم بالزينة، منع منه»(١).

هذا؛ وإنّ الحجاب «علامةٌ على العفيفات، فالحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات في عفتهن وشرفهن، وبعدهن عن دنس الريبة والشك: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن، وإن العفاف تاج المرأة، وما رفرفت العفة على دارٍ إلا أكسبتها الهناء.

ومما يستطرف ذكره هنا: أن النُّميري لما أنشد عند الحجاج قوله:

يُخَمِّرْنَ أطراف البنان من التُّقى ... ويَخْرجن جُنحَ الليلِ مُعْتَجِرَات

قال الحجاج: وهكذا المرأة الحرة المسلمة.

ومن بركات الحجاب: قطع الأطماع والخواطر الشيطانية: فالحجاب وقاية اجتماعية من الأذى، وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكف الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عرضه، وأذى المرأة في عرضها ومحارمها، ووقاية من رمي المحصنات بالفواحش، وَإِدباب قالة السوء، ودَنَس الريبة والشك، وغيرها من الخطرات الشيطانية. ولبعضهم:

حُورٌ حرائر ما هَمَمْنَ بِريبةٍ ... كَظِبَاء مَكَّة صيدهنَّ حرامُ

ومنها: حفظ الحياء: وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلُق يودعه الله في النفوس التي أراد سبحانه تكريمها»(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، للسعدي (٥٦٦).

(٢) حراسة الفضيلة (١ / ١٢٢).

٤ ـ استماع الأغاني والمعازف:

روى البخاري في صحيحه من حديث أبي عامر الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «والله ما كذبني سمع النبي ﷺ يقول: **ليكونن من أمتي أقوام يستحلّون**[١] **الحِرَ**[٢] **والحرير، والخمر، والمعازف**»[٣].

«والحكمة في التحريم ظاهرة: حيث إن المُتتبّع لمجالس الغناء الفاسق، ومسارح الطرب، وأماكن اللهو، وما يصاحبها من معازف وآلات، في ذلك يجد الرقص الخليع الفاجر، من نساء امتهنَّ الرذيلة والفاحشة، ويجد العربدة والصياح المتعالي من أفواه السكارى.

ويجد الكلمات البذيئة الفاحشة العارية من الحياء والخجل، والمتخمة بالوقاحة وسوء الأدب، يجد الاختلاط الشائن بين عوائل متحللة؛ حيث التخلع والمراقصة وهدر النخوة والشرف... وباختصار يجد التحلل والإباحية في أسوأ تبذلها ومظاهرها»[٤].

---

(١) أي: يفعلونها بلا نكير عليهم كهيئة المستحلّين لها من تهاونهم بها واستمرائهم ركوبها بلا خوف ولا حياء من الله تعالى.

(٢) هو الفرج الحرام.

(٣) البخاري (٥٥٩٠) معلقًا بصيغة الجزم، وصححه الحفاظ كابن القيم في تهذيب السنن (١٠/ ١٥٣).

(٤) تربية الأولاد في الإسلام»، لعبد الله العلوان (٢/ ٩٢٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال الفُضَيل بن عِيَاض: «الغناء رُقْيَة الزنا»(١). وصدق رحمه الله، فللغناء فعله المُسكِر لنفوس أهل الشهوة، بل قد يفعل بها ما تفعله الكؤوس المُعَتّقَةُ المُترعة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عن الغناء: «فإنه رُقْيَة الزنا ومُنبِت النفاق وشَرَك الشيطان وخمرة العقل، وصَدُّه عن القرآن أعظم من صدِّ غيره من الكلام الباطل؛ لشدة ميل النفوس ورغبتها فيه»(٢)(٣).

والغناء المذموم هو ما كان مثيرًا للغرائز، أو واصفًا للمفاتن، أو صادًّا عن ذكر الله تعالى، أو مصاحَبًا بمعازف. وللسلف في ذمه كلام كثير مشتهر، وبالله التوفيق ومنه الحفظ والعصمة.

(١) ذم الملاهي» لابن أبي الدنيا (٥٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٢٤٠).

(٣) وانظر: موسوعة الأخلاق، فصل (العفاف).

من الوسائل المعينة على العفة

من أراد النجاة فليبذل أسبابها، وليهتد إليها بالعلم الصحيح المُردَف بالعمل الجاد القويم، وإلّا فلا يلومنّ إلا نفسه.

ترجو النجاةَ ولمْ تسلُكْ مسالِكَهَا إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

وهاك بعضًا من الوسائل المعينة ـ بإذن الله ـ على العفاف، فمنها:

١ ـ تقوى الله تعالى في السرّ والعلانية:

قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣]، ويقول تعالى: ﴿يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. ورسول الهدى ﷺ هو مضرب المثل في التزام حفظ العين من الخيانة، وفي كلِّ خلق سنيٍّ، فعن مصعب بن سعد، عن سعد رضي الله عنه، قال: لمّا كان يوم فتح مكة أَمَّنَ رسولُ الله ﷺ الناسَ إلّا أربعةَ نَفَرٍ وامرأتين وسمّاهم ـ ومنهم ابن أبي سَرْح ـ فذكر الحديث؛ قال: وأمّا ابن أبي سرح فإنّه اختبأ عند عثمان بن عفان، فلما دعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على رسول الله ﷺ، فقال: يا نبيَّ الله؛ بايعْ عبدَ الله، فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا، كُلُّ ذلك يأبى، فبايَعَهُ بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: **«أما كان فيكم رجلٌ رشيدٌ يقوم إلى هذا حيث رآني كففتُ يدي عن بيعته فيقتله؟»** فقالوا: ما ندري يا رسول الله ما في نفسك، أَلَا أومأتَ إلينا بعينِك؟ قال: **«إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»**. قال أبو داود: «كان عبد الله أخا عثمان من الرضاعة،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وكان الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمه، وضربه عثمان الحدّ إذ شرب الخمر»(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ قال: «هو الرجل يكون بين الرجال، فتمرّ بهم امرأة فينظر إليها، فإذا نظر إليه أصحابه غضَّ بصره»(٢).

فيا أيّها المبارك؛ إذا همّتْ نفسُكَ بفعل المنكر والقبيح من النظر إلى هذا العفن القذر؛ فتذكّر بأن الله يراك ومطلع عليك، وأنه يراك قبل أن يصل بصرك وسمعك وجوارحك إلى ما حرّمَ عليك، فاستحي(٣) أن يراك وأنت في معصية، فلا يكن الله أهون الناظرين إليك، فاجتهد ـ رعاك الله ـ أن يراك ربك حيث أمرك، ولا يراك حيث نهاك، فإن يومًا دعتك نفسك وزيّنَ لك الشيطانُ فعل المعصية؛ فاعلم بأنّ الله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]. وصدق والله مَن قال:

إذا ما خلوتَ الدَّهرَ يومًا فلا تقلْ ... خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسَبَنَّ اللهَ يغفلُ طَرْفَةً ... ولا أنّ ما يُخفى عليه يغيبُ

وقال القحطاني في نونيته القيّمة:

---

(١) أبو داود (٣/ ٥٩) (٢٦٨٣) وصححه الألباني.

(٢) تفسير السمعاني (٥/ ١٣) ومرّ قريبًا.

(٣) أصلها بياءين (استحيي)، وحذفت إحداهما للجزم، لأنها وقعت جوابًا للشرط، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

إذا ما خلوتَ بريبةٍ في ظُلمةٍ والنفسُ داعية إلى العصيانِ
فاستحْيِ من نظرِ الإلهِ وقل لها إنّ الذي خلقَ الظلامَ يراني

ومتى همّتْ نفسُكَ بالنظر إلى الحرام؛ فتذكّرْ أنّ الله تعالى هو الذي أنعم عليك بهذه النعمة، وهو سبحانه القادر أن يسلبها منك، ولا أحد غيره يستطيع أن يردّها لك، فهل يكون ذلك هو شكرك لهذه النعمة العظيمة التي قد حُرِمَ منها فئامٌ من البشر كثير؟!

وكلّ واحد ممن حُرموا نعمة البصر يتمنّى أن ينفق ما لديه ويردّ إليه متاع بصره ولو ساعة واحدة يرى بها من يُحبّ! فاحفظ بصرك واتّق ربك يحفظك الله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن:٦٠]، والجزاء من جنس العمل، قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»(١).

وعليك أن تستحضر دائمًا وأبدًا بأنك إلى الله راحل، وبين يديه واقف، وهو سبحانه سائلك عن كل كبيرة وصغيرة فعلتها في حياتك، فماذا ستقول له عندما يسألُكَ عن هذه الأوقات التي ضيعتها في المنكرات أو الغفلات؟

فاحرص أن تلقى الله تعالى وأنت على طاعة، واحذر أن يأتيَكَ الموت وأنت على معصية، فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «**كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل**»، فكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: «إذا أمسيتَ فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من

(١) الترمذي (٢٥١٨). وقال عنه: هذا حديث حسن صحيح.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»(١).

٢ ـ أن يدعو الله بأن يصرف عنه السوء والفحشاء:

والأدعية المأثورة بتحصيل العفاف كثيرة، فعلى الموفّق أن يُلِظَّ بها مُلِحًّا على ربه؛ عَلَّهُ أن يسلكه في أهل العفاف والفضيلة والهدى والرشاد، فمنها ما رواه ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي ﷺ كان يقول: **«اللَّهم إني أسألك الهدى، والتقى، والعفاف، والغنى»**(٢).

ومنها ما حدَّث به علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن مُكاتَبًا جاءه فقال: إني عجزت عن كتابتي فأعني، قال: ألا أعلّمكَ كلمات علّمنِيهنّ رسولُ الله ﷺ، لو كان عليك مثل جبل دينًا أدَّاه الله عنك؟ قل: «**اللَّهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك**»(٣).

ومنها ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا إذا أخذ أحدنا مضجعه أن يقول: «**اللَّهم ربَّ السماوات، وربَّ الأرَضِين، وربَّنا، وربَّ كلِّ شيء، وفالقَ الحبِّ والنّوى، ومُنزّل التوراة والإنجيل والقرآن؛ أعوذ بك من شرّ كل ذي شرّ أنت آخذٌ بناصيته، أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، والظاهر فليس فوقك شيء، والباطن فليس دونك**

---

(١) البخاري (٦٤١٦).

(٢) مسلم (٨/٨١) (٢٧٢١).

(٣) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه. وكذا حسنه الألباني.

شيء، اقضِ عنّي الدين، وأغنني من الفقر»(١).

ومنها ما جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «دخل رسول الله ﷺ ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار ـ يقال له: أبو أمامة ـ جالسًا فيه، فقال: «**يا أبا أمامة، مالي أراك جالسًا في المسجد في غير وقت صلاة؟**»، قال: همومٌ لزمتني وديونٌ يا رسول الله. قال: «**ألا أعلّمكَ كلامًا إذا قلتَهُ أذهب الله عز وجل همَّك، وقضى عنك دينك؟**»، فقال: بلى يا رسول الله. قال: «**قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللّهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من البخل والجبن، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال**». فقلت ذلك، فأذهب الله همِّي، وقضى عني ديني»(٢).

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما حديث أبي أمامة: «**اللهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ**»، فقد تضمَّن الاستعاذة من ثمانية أشياء، كُلُّ اثنين منها قَرينان مزدوجان:

فالهمُّ والحَزَنُ أَخوان، والعجزُ والكسلُ أخوان، والجُبنُ والبُخلُ أَخوان، وضَلَعُ الدَّيْن وغلبةُ الرجال أخوان. فإنَّ المكروه المؤلم إذا ورد على القلب، فإما أن يكون سببهُ أمرًا ماضيًا، فيُوجب له «الحزن»، وإن كان أمرًا متوقعًا في

---

(١) سنن الترمذي (٥ / ٤٧٢)، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني.

(٢) أبو داود (١٥٥٥)، وأصله في الصحيحين، وألفاظ الدعاء ثابتة، أما أصل القصة ففي ثبوتها كلام. وانظر: شرح سنن أبي داود للعباد ٣٥/١٨٤

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المستقبل، أوجب «الهم»، وتخلفُ العبد عن مصالحه وتفويتها عليه، إما أن يكون مِن عدم القُدرة وهو «العجز»، أو من عدم الإرادة وهو «الكسل»، وحبسُ خيره ونفعه عن نفسه وعن بنى جنسه، إما أن يكونَ منعَ نفعه ببدنه، فهو «الجُبن»، أو بماله، فهو البخل، وقهرُ النَّاس له إما بحق، فهو «ضَلَعُ الدَّيْن»، أو بباطل فهو «غَلَبَةُ الرِّجال»، فقد تضمَّن الحديثُ الاستعاذة من كل شَرٍّ»(١).

وقال سبحانه وتعالى عن نبيه يوسف عليه السلام: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

قال ابن تيمية: «فلا بد من التقوى بفعل المأمور، والصبر على المقدور، كما فعل يوسف عليه السلام اتقى الله بالعفة عن الفاحشة، وصبر على أذاهم له بالمراودة والحبس، واستعان الله ودعاه حتى يثبته على العفة، فتوكل عليه أن يصرف عنه كيدهن، وصبر على الحبس»(٢).

ولقد «جمع النبي ﷺ بين العفة والغنى في عدة أحاديث، منها قوله في حديث أبي سعيد المخرج في الصحيحين: «**من يستغنِ يُغنهِ اللهُ، ومن يستعففْ يعُفُّهُ اللهُ**»(٣).

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤ / ٢٠٨).

(٢) الفتاوى (١٥/ ١٣١).

(٣) البخاري (٢/ ١٥١)، ومسلم (٣/ ١٠٢).

ومنها قوله في حديث عياض بن حمار في صحيح مسلم: «**أهل الجنة ثلاثة: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ**»(١).

ومنها قوله في حديث الخيل الذي في الصحيح: «**ورجل ارتبطها تغنيًا وتعفُّفًا، ولم ينس حق الله في رقابها وظهورها فهي له ستر**»(٢).

ومنها قوله في حديث عمر وغيره: «**ما أتاك من هذا المال وأنت غير سائل ولا مُشْرِفٍ فخُذْهُ**»(٣). فالسائل بلسانه وحاله ضدّ المتعفف، والمشرف بقلبه وحاله ضد حال الاستغناء والزهد والقناعة.

وقال الله تعالى في حق الفقراء: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] أي: عن السؤال للناس.

وقال ﷺ: «**ليس الغنى عن كثرة العَرَض، وإنما الغنى غنى النفس**»(٤). فغنى النفس الذي لا يستشرف إلى المخلوق، فإنّ الحرّ عبد ما طمع، والعبد حرّ ما قنع. وقد قيل: أطعتُ مطامعي فاستعبدتني(٥). فكره أن يتبع نفسه ما استشرفت له، لئلا يبقى في القلب فقر وطمع إلى المخلوق؛ فإنه خلاف التوكل

---

(١) مسلم (٢٨٦٥).

(٢) البخاري (٢٨٦٠). ومسلم (٩٨٧).

(٣) البخاري (٩/ ٨٤، ٨٥) (٧١٦٣)، ومسلم ٣/ ٩٨ (١٠٤٥).

(٤) البخاري (٨/ ١١٨) (٦٤٤٦)، ومسلم (٣/ ١٠٠) (١٠٥١).

(٥) تمامه: ولو أني قنعتُ لكنتُ حرًّا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المأمور به وخلاف غنى النفس»[١].

وللكلام في فضيلة وضرورة الدعاء فإنّ هٰهنا مسألة شريفة، وهي: هل الأولى في دعاء الله تعالى أن يجهر أو يسرّ، ولماذا قرن الله تعالى الذكر بالخِيفة، والدعاء بالخُفية؟

أجاب عن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: «قول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء؛ لكنه ظاهر في دعاء المسألة متضمن دعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه وإسراره.

قال الحسن: بين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفًا، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء وما يسمع لهم صوت. أي ما كانت إلا همسًا بينهم وبين ربهم عز وجل؛ وذلك أن الله عز وجل يقول: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥]، وأنه ذكر عبدًا صالحًا ورضي بفعله فقال: ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا﴾ [مريم: ٣].

وفي إخفاء الدعاء فوائد عديدة:

أحدها: أنه أعظم إيمانًا؛ لأن صاحبه يعلم أن الله يسمع الدعاء الخفي.

ثانيها: أنه أعظم في الأدب والتعظيم، لأن الملوك لا تُرفع الأصوات عندهم، ومن رفع صوته لديهم مقتوه، ولله المثل الأعلى. فإذا كان يسمع الدعاء الخفيّ فلا يليق بالأدب بين يديه إلا خفض الصوت به.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨ / ٣٢٨).

ثالثها: أنه أبلغ في التضرع والخشوع الذي هو روح الدعاء ولبّه ومقصوده. فإن الخاشع الذليل إنما يسأل مسألة مسكين ذليل، قد انكسر قلبه، وذلّت جوارحه، وخشع صوته؛ حتى إنّه ليكاد تبلغ ذلته وسكينته وضراعته إلى أن ينكسر لسانه فلا يطاوعه بالنطق. وقلبُه يسأل طالبًا مبتهلًا، ولسانُه لشدة ذلته ساكتًا. وهذه الحال لا تأتي مع رفع الصوت بالدعاء أصلًا.

رابعها: أنه أبلغ في الإخلاص.

خامسها: أنه أبلغ في جمعيّة القلب على الذلة في الدعاء، فإن رفع الصوت يفرّقه، فكلما خفض صوته كان أبلغ في تجريد همته وقصده للمدعو سبحانه.

سادسها: ـ وهو من النكت البديعة جدًّا ـ أنه دالّ على قرب صاحبه للقريب، لا مسألةَ نداءِ البعيد للبعيد؛ ولهذا أثنى الله على عبده زكريا بقوله عز وجل: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]. فلما استحضر القلب قرب الله عز وجل وأنه أقرب إليه من كل قريب أخفى دعاءه ما أمكنه.

وقد أشار النبي ﷺ إلى المعنى بعينه بقوله في الحديث الصحيح لما رفع الصحابة أصواتهم بالتكبير وهم معه في السفر فقال: «**أَرْبَعُوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنّكم تدعون سميعًا قريبًا، إنّ الذي تدعونه أقربُ إلى أحدكم من عنق راحلته**»(١).

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ

(١) أحمد (١٩٥٩٩)، وأصله عند الشيخين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وهذا القرب من الداعي هو قرب خاصٌّ ليس قربًا عامًّا من كل أحد، فهو قريب من داعيه وقريب من عابديه، وأقربُ ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وقوله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فيه الإرشاد والإعلام بهذا القرب.

سابعها: أنه أدعى إلى دوام الطلب والسؤال، فإن اللسان لا يملّ، والجوارح لا تتعب، بخلاف ما إذا رفع صوته فإنه قد يملّ اللسان وتضعف قواه. وهذا نظير من يقرأ ويكرر فإذا رفع صوته فإنه لا يطول له؛ بخلاف من خفض صوته.

ثامنها: أن إخفاء الدعاء أبعد له من القواطع والمشوشات، فإن الداعي إذا أخفى دعاءه لم يدرِ به أحدٌ فلا يحصل على هذا تشويشٌ ولا غيرُه، وإذا جهر به فَرَطَتْ له الأرواح البشرية ولا بد، ومانَعَتْه وعارضته، ولو لم يكن إلا أنَّ تعلَّقها به يفرّق عليه همته؛ فيضعف أثر الدعاء. ومن له تجربة يعرف هذا، فإذا أسر الدعاء أمن هذه المفسدة.

تاسعها: أن أعظم النعمةِ الإقبالُ والتعبد، ولكل نعمةٍ حاسد على قدرها دقّت أو جلّت، ولا نعمةَ أعظمَ من هذه النعمة، فإن أنفُسَ الحاسدين متعلقةٌ بها، وليس للمحسود أسلمَ من إخفاء نعمته عن الحاسد.

وقد قال يعقوب ليوسف عليهما السلام: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ الآية [يوسف: ٥]. وكم من صاحب قلبٍ وجمعيةٍ وحالٍ مع الله تعالى قد تحدّث بها وأخبر بها فسلبه إياها الأغيارُ؛ ولهذا يوصي العارفون

والشيوخ بحفظ السر مع الله تعالى، ولا يطلعُ عليه أحدٌ.

والقومُ أعظم شيئًا كتمانًا لأحوالهم مع الله عز وجل وما وهب الله من محبته والأنسِ به وجمعيةِ القلب، ولا سيّمَا فِعْلُهُ للمبتدئِ السّالك، فإذا تمكّن أحدهم وقويَ وثبَّت أصولَ تلك الشجرة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء في قلبه ـ بحيث لا يخشى عليه من العواصف.

فإنه إذا أبدى حالَه مع الله تعالى ليُقتدى به ويؤتمَّ به لم يبال. وهذا باب عظيم النفع، إنما يعرفه أهله.

وإذا كان الدعاء المأمور بإخفائه يتضمن دعاء الطلب والثناء والمحبة والإقبالِ على الله تعالى فهو من عظيم الكنوز التي هي أحق بالإخفاء عن أعين الحاسدين وهذه فائدة شريفة نافعة.

عاشرها: أن الدعاءَ هو ذكرٌ للمدعوِّ سبحانه وتعالى، متضمنٌ للطلب والثناء عليه بأوصافه وأسمائه، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكرَ سُمّيَ دعاءً لتضمنه للطلب.

كما قال النبي ﷺ: «**أفضل الدعاء الحمد لله**»، فسمَّى الحمدَ لله دعاءً وهو ثناء محض؛ لأن الحمدَ متضمنٌ الحبَّ والثناء، والحبُّ أعلى أنواع الطلب؛ فالحامد طالبٌ للمحبوب فهو أحق أن يُسمَّى داعيًا من السائل الطالب؛ فنفس الحمد والثناء متضمن لأعظم الطلب فهو دعاء حقيقة، بل أحق أن يسمى دعاء من غيره من أنواع الطلب الذي هو دونه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمقصود؛ أنّ كلَّ واحد من الدعاء والذكر يتضمن الآخر ويدخل فيه، وقد قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فأمر تعالى نبيه ﷺ أن يذكره في نفسه.

قال مجاهد وابن جريج: أُمروا أن يذكروه في الصدور بالتضرع والاستكانة دون رفع الصوت والصياح. وتأمل كيف قال في آية الذكر: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾، وفي آية الدعاء: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعًا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] فذكر التضرعَ فيهما معًا، وهو التذلّل والتمسكن والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.

وخَصَّ الدعاء بالخُفية لما ذكرنا من الحِكَمِ وغيرها، وخصّ الذكر بالخِيفة لحاجة الذاكر إلى الخوف، فإنّ الذكر يستلزم المحبة ويثمرها؛ ولا بد لمن أكثر من ذكر الله أن يثمر له ذلك محبته، والمحبةُ ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبها بل تضرُّه؛ لأنها توجب التوانيَ والانبساط، وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أن استغنوا بها عن الواجبات، وسبب هذا عدمُ اقتران الخوف من الله بحبه وإرادته.

ولهذا قال بعض السلف: «من عبدَ الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن».

والمقصود؛ أن تجريدَ الحب والذكر عن الخوف يوقع في هذه المعاطب، فإذا اقترن بالخوف جَمَعَهُ على الطريق ورده إليه، كالخائف الذي معه سوط يضرب به

مطيته؛ لئلا تخرج عن الطريق. والرجاءُ حادٍ يحدوها يطلب لها السير، والحبُّ قائدُها وزمامها الذي يشوِّقها، فإذا لم يكن للمطية سوطٌ ولا عصا يردها إذا حادت عن الطريق خرجت عن الطريق وظلت عنه.

فما حُفظت حدودُ الله ومحارمُه ووصل الواصلون إليه بمثل خوفه ورجائه ومحبته، فمتى خلا القلب من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرجى صلاحه أبدًا، ومتى ضعف فيه شيء من هذه ضعف إيمانه بحسَبه.

فتأمل أسرارَ القرآن وحكمتَه في اقتران الخِيفة بالذكر، والخُفية بالدعاء، مع دلالته على اقتران الخُفية بالدعاء والخِيفة بالذكر أيضًا، وذكرِ الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأنّ الدعاء مبنيٌّ عليه، فإنّ الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرّكْ نفسه لطلبه؛ إذ طلبُ ما لا طمعَ له فيه ممتنعٌ، وذكرُ الخوفِ في آية الذكر لشدة حاجة الخائف إليه.

فذكر في كل آيةٍ ما هو اللائق بها من الخوف والطمع، فتبارك من أنزل كلامه شفاءً لما في الصدور»[1].

٣ـ تنشئة الأبناء على التربية الإسلامية:

التربية الإسلامية من أهم الوسائل المعينة على العفة، والتي ينبغي فيها مراعاة غرس الفضيلة والعفة في الأبناء، والتربية على الالتزام بالأحكام الشرعية منذ نعومة أظفارهم.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥ -٢٢) مختصرًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٤ ـ الزواج:

فالنكاح من أعظم أسباب العفاف، فعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إذا أحدكم أعجبته المرأة، فوقعت في قلبه، فليعمد إلى امرأته فليواقِعْهَا؛ فإنّ ذلك يردُّ ما في نفسه**»(١).

ومن لم تكفه الزوجة الواحدة لإعفافه فليتزوج ثانية وثالثة ورابعة ليحصِّل عفاف فرجه ولينجو من حفر نار الرذيلة.

والله تعالى يقول: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣]، وليحرص على العدل، ولينوِ الحزم مع نفسه، وليستعدّ بالعدل لساعة الحساب غدًا، قال ﷺ: «**من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما؛ جاء يوم القيامة وشقُّه مائلٌ**»(٢).

ومتى صدق النيّة في العفاف وبذل السبب المقدور؛ فليبشر بمدد الله تعالى له، فقد وعد بذلك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة حقٌّ على الله عونهم: المجاهدُ في سبيل الله، والمكاتَبُ الذي يريد الأداء، والناكحُ الذي يريد العفاف**»(٣)، أي: العفة من الزنا.

---

(١) مسلم (١٤٠٣).

(٢) أبو داود (٢١٢٢) واللفظ له، وأحمد (٧٩٣٦). وصححه الألباني.

(٣) أحمد (٧٤١٦). والترمذي وحسَّنه (١٦٥٥)، وجوَّد إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥).

قال الطِّيبي: «إنما آثر هذه الصيغة إيذانًا بأن هذه الأمور من الأمور الشاقة التي تفدح الإنسان وتقصم ظهره، لولا أنَّ الله تعالى يعينه عليها لا يقوم بها، وأصعبها العفاف؛ لأنَّه قمع الشهوة الجبلِّية المركوزة فيه، وهي مقتضى البهيمية النازلة في أسفل السافلين.

فإذا استعفَّ وتداركه عون الله تعالى ترقَّى إلى منزلة الملائكة وأعلى عليين»(١).

وقد ذكر الغزالي رحمه الله تعالى تكثير النسل وإبقاءه على أنه المقصد الأول للزواج، وجعل حفظ الفرج وكسر الشهوة المقصد الثاني فقال: «فيه ـ أي النكاح ـ فوائد خمسة:

١ ـ الولد، وهو الأصل وله وضع النكاح والمقصود به إبقاء النسل.

٢ ـ كسر الشهوة، والمراد التحصن من الشيطان، وكسر التوقان ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر وحفظ الفرج.

٣ ـ ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر ونحوهما إراحة وتقوية لها على العبادة، ذلك أن النفس ملول، وهي عن الحق نفور، لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت، وإذا روحت في بعض الأوقات قويت ونشطت.

وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكره ويروح القلب،

---

(١) تحفة الأحوذي للمباركفوري (٢/٢٩٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات، ولذلك قال تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: روِّحوا القلوب ساعة فإنها إذا أكرهت عميت.

٤ ـ في الزواج تفريغ القلب عن تدبير المنزل وتهيئة أسباب المعيشة، ولو تكفل المرء بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته، ولم يتفرغ للعلم والعمل، والمرأة الصالحة عون على الدين بهذه الطريق.

٥ ـ مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، ورعايتهن، وهذه كلها أعمال عظيمة الفضل لما فيها من الرعاية والولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، ولا يحترز منها إلا من خاف القصور عن القيام بحقها»(١).

وقال السفّاريني رحمه الله تعالى: «النكاح مأمور به شرعًا، وهو مستحسن وضعًا وطبعًا؛ لأن به بقاء النسل وعمار الدنيا، وعبادة الله، والقيام بالأحكام، وهو سنة لذي شهوة ولا يخاف الزنا ولو كان فقيرًا، والاشتغال به أفضل من التخلي لنوافل العبادة، ويباح لمن لا شهوة له. ويجب على من يخاف الزنا رجلًا كان أو امرأة، علمًا كان الخوف أو ظنًّا، وهو مقدم على الحج الواجب كما نص عليه الإمام أحمد بن حنبل، وتعرض الكراهية للنكاح إذا كان الناكح غير ذي

(١) إحياء علوم الدين بتصرف واختصار (٢/ ٢٤ - ٣١)، وانظر: نضرة النعيم (٥/ ١٦٥٧).

شهوة لأنه يمنع من تزوجها من الإحصان ـ العفة ـ بغيره، ويضرها بحبسها على نفسه»[١].

٥ ـ سد الذرائع التي تؤدي إلى الفساد:

فإذا وُجد السبب وُجد المُسبِّب، والتساهل في الذرائع الموصلة للحرام هو من قبيل الرعي حول الحمى الحرام الذي يوشك صاحبه أن يواقعه فيهلك. فلا بد للمؤمن أن يغلق مبادئ الشر فور حدوثها وألا يسترسل فيها، ومن لك:

أولًا: عدم الخلوة بالمرأة الأجنبية:

قال ﷺ: «**الحمو الموت**»، وقال: «**ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما**»[٢].

قال ابن تيمية: «ولهذا حرمت الخلوة بالأجنبية؛ لأنها مظنة الفتنة. والأصل أن كل ما كان سببًا للفتنة فإنه لا يجوز؛ فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدُّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة؛ ولهذا كان النظر الذي يفضي إلى الفتنة محرمًا إلا إذا كان لمصلحة راجحة مثل: نظر الخاطب، والطبيب، وغيرهما؛ فإنَّه يباح النظر للحاجة؛ لكن مع عدم الشهوة»[٣]. وقد سبقت الإشارة لذلك.

---

(١) شرح منظومة الآداب للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٣٢ - ٤٣٤).

(٢) تقدم تخريجهما قريبًا.

(٣) الفتاوى (٢١/ ٢٥١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثانيًا: عدم التبرج:

قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣].

ثالثًا: عدم الاختلاط إلا بحدود الحاجة الملحَّة:

وقد تقدم الكلام على التبرج وعلى الاختلاط.

رابعًا: الاستئذان عند الدخول:

وقد جعل الاستئذان من أجل البصر، كما قال ﷺ، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا﴾ [النور: ٢٧].

خامسًا: التفريق في المضاجع:

لابد من التفريق في المضاجع بين الأولاد، كما أمر بذلك النبي ﷺ: «**مروا أولادكم بالصلاة لسبع، واضربوهم عليها لعشر، وفرقوا بينهم في المضاجع**»(١).

«فهذا الحديث نصٌّ في النهي عن بداية الاختلاط داخل البيوت، إذا بلغ الأولاد عشر سنين، فواجب على الأولياء التفريق بين أولادهم في مضاجعهم، وعدم اختلاطهم، لغرس العفة والاحتشام في نفوسهم.

---

(١) أحمد (١٨٧/٢)، وصححه ابن الملقن في البدر المنير (٢٣٨/٣)، وابن باز في فتاواه (١٨٦/٢٩).

وخوفًا من غوائل الشهوة التي تؤدي إليها هذه البداية في الاختلاط، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[١].

سادسًا: الغيرة على المحارم:

إنما يغار على المحارم الأحرار، والغيرة الشريفة هي مما يُصان به العفاف ويحفظ به الشرف، وهي من خصال المؤمنين، وهو خُلُق ممدوح، وخصلة نبيلة، وسجيّة حميدة.

والغيرة على المحارم حراسة لهن من عبث الفجار وشهوات الفساق. كما أنّ الرجل إذا غار على محارمه من الرجال فهو أدعى لأن يصون نفسه، ففي صيانها حفظ لهم، فالجزاء من جنس العمل.

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ألم يبلغني عن نسائكم أنهن يزاحمن العلوج[٢] في الأسواق؟ ألا تغارون؟ من لم يغر فلا خير فيه»[٣].

وقال أيضًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغيرة غيرتان: حسنة جميلة يصلح بها الرجل أهله، وغيرة تدخله النار»[٤].

---

(١) حراسة الفضيلة (١٢٩).

(٢) العِلْج: الرجل القوي الفخم، والعلج الرجل من كفار العجم وغيرهم، والأعلاج: جمعه، ويجمع على علوج. النهاية في غريب الحديث (٣/٢٨٦).

(٣) كنز العمال (٣ / ٧٨٠) (٨٧٣٥).

(٤) كنز العمال (٣ / ٧٨٠) (٨٧٣٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وعن علقمة: أنَّ معاذ بن جبل كان يأكل تفّاحةً ومعه امرأته فدخل عليها غلامٌ، فناولته أمرأته تفَّاحةً قد أكلت منها فأوجعها ضربًا.

وقال الشيخ أحْمد شاكر رحمه الله تعالى معلقًا على حديث: «**انطلق فحجّ مع امرأتك**»(١): «فإذا كان هذا في النهي عن الحج بعد حجة الفريضة ـ على أن الحج من أعلى القربات عند الله ـ فما بالك بما يصنع النساء المنتسبات للإسلام في هذا العصر من التنقل في البلاد، حتى ليخرجن سافرات عاصيات ماجنات إلى بلاد الكفر، وحدهن دون محرم، أو مع زوج أو محرم كأنه لا وجود له، فأين الرجال؟! أين الرجال؟!»(٢).

٦ ـ إقامة الحدود:

فإقامة الحدود تردع لمن تسول له نفسه أن يقوم بأمر حذر منه الشارع، وعن يحيى بن سعيد رحمه الله: أن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول: «ما يزع الناس السلطان أكثر مما يزعهم القرآن»(٣).

ويظلم نفسه وصاحبه من أعان عاشقًا على بلوغ وطره من الحرام وذلك من وجهين:

أحدهما: أنه عصى الله وأعانه على معصيته.

---

(١) أحمد (١/ ٢٢٢)، والبخاري (٣٠٠٦)، ومسلم (١٣٤١).

(٢) عمدة التفسير (٣/ ١١).

(٣) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٤ / ٨٣).

وثانيهما: أنه بذلك يزيد من مرضه وعلّته من حيث أراد شفاءه.

«قال النبي ﷺ: «**العينان تزنيان وزناهما النظر**»[١]...الحديث. فكثير من الناس يكون مقصوده بعض هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث: كالنظر والاستمتاع والمخاطبة. ومنهم من يرتقي إلى اللمس والمباشرة، ومنهم من يقبل وينظر، وكل ذلك حرام.

وقد نهانا الله عز وجل أن تأخذنا بالزناة رأفة، بل نقيم عليهم الحدّ، فكيف بما هو دون ذلك من هجر وأدب باطن ونهي وتوبيخ وغير ذلك؟ بل ينبغي شنآن الفاسقين وقليهم[٢] على ما يتمتع به الإنسان من أنواع الزنا المذكورة في هذا الحديث المتقدم وغيره.

وذلك أن المحب العاشق، وإن كان إنما يحب النظر والاستمتاع بصورة ذلك المحبوب وكلامه، فليس دواؤه في أن يعطي نفسه محبوبها وشهوتها من ذلك لأنه مريض.

والمريض إذا اشتهى ما يضره أو جزع من تناول الدواء الكريه فأخذتنا رأفة عليه حتى نمنعه شربه فقد أعنَّاه على ما يضره أو يهلكه، وعلى ترك ما ينفعه، فيزداد سقمه فيهلك.

وهكذا المذنب العاشق ونحوه هو مريض، فليس الرأفة به والرحمة أن

---

(١) أحمد (٨٥٣٩)، والبخاري (٦٢٤٣)، ومسلم (٢٦٥٧).

(٢) شنآنهم: ذمّهم. وقَلْيهم: هجرهم.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يمكّن مما يهواه من المحرمات ولا يعان على ذلك ولا أن يمكّن من ترك ما ينفعه من الطاعات التي تزيل مرضه قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، أي فيها الشفاء وأكبر من ذلك. بل الرأفة به أن يعان على شرب الدواء وإن كان كريهًا؛ مثل الصلاة وما فيها من الأذكار والدعوات، وأن يُحمى عما يقوّي داءه ويزيد علته وإن اشتهاه.

ولا يظن الظان أنه إذا حصل له استمتاع بمحرم يسكن بلاؤه، بل ذلك يوجب له انزعاجًا عظيمًا وزيادة في البلاء والمرض في المآل، فإنه وإن سكن بلاؤه وهدأ ما به عقيب استمتاعه أعقبه ذلك مرضًا عظيمًا عسيرًا لا يتخلص منه. بل الواجب دفع أعظم الضررين باحتمال أدناهما قبل استحكام الداء الذي ترامى به إلى الهلاك والعطب.

ومن المعلوم أن ألم العلاج النافع أيسر وأخف من ألم المرض الباقي. وبهذا يتبين لك أن العقوبات الشرعية كلها أدوية نافعة يصلح الله بها مرض القلوب، وهي من رحمة الله بعباده ورأفته بهم الداخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فمن ترك هذه الرحمة النافعة لرأفة يجدها بالمريض، فهو الذي أعان على عذابه وهلاكه وإن كان لا يريد إلا الخير، إذ هو في ذلك جاهل أحمق.

كما يفعله بعض النساء والرجال الجهال بمرضاهم وبمن يربونه من أولادهم وغلمانهم وغيرهم في ترك تأديبهم وعقوبتهم على ما يأتونه من الشر ويتركونه من الخير رأفة بهم فيكون ذلك سبب فسادهم وعداوتهم

وهلاكهم»[(١)].

٧ ـ مجاهدة النفس في مرضاة الله تعالى.

فالمؤمن يعلم أنه في دار ابتلاء وامتحان، ويعلم ان الله تعالى خلقه لحكمة وأمده بعلوم تهديه وأعمال تحفظه واعتقادات تحميه وتسلّيه، ثم سلّط عليه أعداءه وأخبره أنه في ميدان الاختبار حتى يوطّن نفسه أن تخرج من تنور الامتحان ذهبًا لا خَبَثًا! وقد وعده ربه الرحيم بمعونته وهدايته وتسديده إن صدق معه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وتأمل هذه المعيّة الربانية الهائلة القريبة اللطيفة.

ومن المجاهدة التفطن لمدافعة الخطرات إذا تولدت في الذهن، لأنها مبدأ الخير والشر، ومنها تتولد الإرادات والهمم والعزائم، ومن ثم توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والارادات تقتضي الفعل.

ولذلك فإن من راعى خطراته ملك زمام نفسه وقهر هواه وشهوته، ومن أفلتها فلأودية الردى نفسه أطلقها!

قال شيخ الإسلام في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧]: «فذكر ما يتعلق بشهوات الآدميين من سائر ما تشتهيه أنفسهم حتى النساء والمردان... وقال: العبد يجب عليه إذا وقع في شيء من ذلك أن يجاهد نفسه وهواه، وتكون مجاهدته لله تعالى

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٢٨٩).

وحده... ثم قال: وميل النفس إلى النساء عام في طبع جميع بني آدم، وقد يبتلى كثير منهم بالميل إلى الذكران كالمردان، وإن لم يكن يفعل الفاحشة الكبرى كان بما هو دون ذلك من المباشرة، وإن لم تكن كان بالنظر، ويحصل للنفس بذلك ما هو معروف عند الناس.

وقد ذكر الناس من أخبار العشاق ما يطول وصفه، فإذا ابتلي المسلم ببعض ذلك كان عليه أن يجاهد نفسه في طاعة الله تعالى، وهو مأمور بهذا الجهاد وليس هو أمرًا حرمه على نفسه فيكون في طاعة نفسه وهواه؛ بل هو أمر حرمه الله ورسوله ولا حيلة فيه، فتكون المجاهدة للنفس في طاعة الله ورسوله»[١].

إنّ مجاهدة النفس في ذات الله تعالى لها لذَّة تفوق لذائذ الدنيا ومتعها حسية كانت أو معنوية فضلًا من الله تعالى لأوليائه وكرمًا لمريدي رضوانه.

ولا خير البتة في محبة تصرف عن محبة المحبوب الحق، الذي لا يستحق الحب على الكمال إلا هو، وكم ممن كان على جادة الاستقامة فحرفته غياية العشق لمهاوي الردى وأودية الضياع!

«ألا وإن بعض من بَسَطَ المداد في تيك السابلة، قد جاوز الغاية في التهتك وخلع العِذار، وإن لم يكن الأدب رافد عفاف وموقد شرف فلا كان.

ولا ريب أن من امتلأ قلبه من محبة الله استغنى عن محبة غيره، ومن أحب غير الله عُذِّبَ به، وعلى حسب نقص محبة الإله الحق في القلب يكون حظّ

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٢٠٧).

الخذلان بحب غيره! وكفى بمحبة الله تعالى عن غيرها غناءً. ولو لم يكن من ذلك إلا مِدحةَ: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

هذا ولمحبة الله ورسوله ودينه قد ضعنت ركائب الأبرار وركضت إليها خيل المقربين، فأدركهم ما دمت قادرًا قبل انشقاق قبرك للحساب!

وقد يُبتلى المرء بحب يذهب بشغاف قلبه ـ لنقص محبة الرحمن فيه ـ فيجاهده ويداريه حتى يسلم من غائلته، ولو لم يكن منها إلا فوات نصيبه من محبة إلهه الحق! لأن العشق يذهب ببعض نصيبه ولا بد، فالمحل واحد والمحبة متباينة.

قال تاجر بن أبي مطيع بكل مجاهدة وعفاف وطهر:

كم قد ظفرتُ بمن أهوى فَيمنعُنِي ... منه الحياءُ وخوف الله والحذرُ
كذلك الحبُّ لا آتيه فاحشةً ... لا خير في لذة من بعدها سقرُ

ومن النساء من تستسهلُ أمرَ الحديث مع صونها واحتشامها، كما قيل:

أُنسٌ غرائرُ ما همن بريبةٍ ... كظباءِ مكة صيدهن حرامُ
يُحْسَبْنَ من لين الحديث فواسقًا ... ويصدُّهنَّ عن الخَنَا الإسلامُ

وإن كان هذا يثلم كمال العفاف في الجملة، إذ تمامه البعد كل البعد عن ذرائع الشر مهما زينتها النفس، فأبو مرة لم يمت، وخطواته مهلكه، ولا يأمن غوائله إلا مفرِّط!

وقال أحد المحبين العفيفين:

أُحِبِّكِ يا سلمى على غير ريبةٍ ... لا خير في حب لا تُعفُّ سرائرهُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال جميل بثينة:

وإنِّي لأرضى من بثينةَ بالذي ... لو استيقنَ الواشي لقرَّت بلابله
بلا وبأن لا أستطيعَ وبالمُنَى ... وبالأملِ المرجوِّ قد خاب آمِلُه

وذكروا عن أبي سهل الساعدي قال: دخلت على جميل بن معمر العذري، وهو عليل، وإني لأرى آثار الموت على وجهه، فقال: يا أبا سهل، أتقول: إن رجلًا يلقى الله لم يسفك دمًا حرامًا، ولم يشرب خمرًا، ولم يأت بفاحشة، أترجو له الجنة؟ قلت: إي والله، فمن هو؟ قال: إني لأرجو أن أكون أنا ذلك الرجل.

قلت: بعد زيارتك بثينة، وما تُحُدِّثَ به عنكما؟ فقال: والله إني لفي يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، ولا أنالتني شفاعة محمد ﷺ إن كنت حدثت نفسي فيها بريبة قط! قال: فما انقضى يومه حتى مات رحمه الله.

وكان عمر بن أبي ربيعة عفَّ الإزار، وكان يقول لصاحبه: أترى ما سيَّرتُ في الناس من الشعر، وربِّ هذه البَنيَّة ما حللت إزاري على فاحشة قط.

وقال الحجَّاج لليلى الأخيلية: هل كانت بينك وبن صاحبك توبة بن الحميّر ريبة؟ قالت: لا، والذي أسأله أن يصلحك، إلّا أنه قال مرةً قولًا ظننت أنَّه خضع لبعض الأمر، فقلت له:

وذي حاجةٍ قلنا له لا تَبُحْ بها ... فليس إليها ما حييتَ سبيلُ
لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونه ... وأنت لأخرى صاحبٌ وخليلُ

فلا، والذي أسأله صلاحك، ما كلّمني بشيءٍ بعدها استربته حتّى فرّق

الدّهر بيني وبينه.

وقال أعرابي من فزاراة: عشقتُ جاريةً من الحي، فحادثتها سنين كثيرة، والله ما حدثت نفسي بريبة قط، سوى أن خلوتُ بها، فرأيت بياضَ كفِّها في سوادِ الليل، فوضعت كفي على كفها، فقالت: مه! لا تفسد ما صلح. فارفَضَّ جبيني عرقًا، ولم أَعُد.

ولا شك أن النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، وكما قال الإمام أحمد: كم نظرة أوقعت في قلب صاحبها البلابل! وأبلغ من ذلك وأعظم وأجل قول ربنا: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

ولما دَعَتِ امرأةٌ عبدَ الله بنَ عبد المطلب إلى نفسها؛ أبى وقال:

أما الحرامُ فالمماتُ دونَهُ ... والحِلَّ لا حِلَّ فاستبينهُ
فكيف بالأمر الذي تبغينه ... يحمي الكريمُ عرضَهُ ودينهُ

وأنشد المبرد:

ما إن دعاني الهوى لفاحشةٍ ... إلا نهاني الحياءُ والكرمُ
فلا إلى فاحشٍ مددتُ يدي ... ولا مشتْ بي لزلّةٍ قدمُ»[1]

وأنّ مما يساعد على المجاهدة التفكّر بالمقارنة بين الدنيا والآخرة في زمانهما وفي حقائقهما، وتدبر قول الله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً

(١) وقد يجمع الله الشتيتين. للمؤلف (٦، ٨٠ – ٩٠) مختصرًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف: ٣٥]. سبحانك ربي! العمر الطويل كله حينما تتذكره غدًا يكون كالساعة! إلا ما أحقر الدنيا، وأحقر منها معاصيها المبعدة عن رضوان الرب الكريم تبارك وتعالى.

وصبر ساعة خير من ندم الدهر، «والصبر عن الشهوة أسهل من الصبر على ما توجبه الشهوة فإنها إما أن توجب ألمًا وعقوبة، وإما أن تقطع لذة أكمل منها، وإما أن تضيع وقتًا إضاعته حسرة وندامة.

وإما أن تثلم عرضًا توفيره أنفع للعبد من ثلمه، وإما أن تذهب مالًا بقاؤه خير له من ذهابه، وإما أن تضع قدرًا وجاهًا قيامه خير من وضعه، وإما أن تسلب نعمة بقاؤها ألذ وأطيب من قضاء الشهوة، وإما أن تطرق لوضيع إليك طريقًا لم يكن يجدها قبل ذلك.

وإما أن تجلب همًّا وغمًّا وحزنًا وخوفًا لا يقارب لذة الشهوة، وإما أن تنسى علمًا ذِكره ألذ من نيل الشهوة، وإما أن تشمّت عدوًّا وتحزن وليًّا، وإما أن تقطع الطريق على نعمة مقبلة، وإما أن تحدث عيبًا يبقى صفة لا تزول، فان الأعمال تورث الصفات والأخلاق»[1].

«أيها الشيوخ: آن الحصاد. أيها الكهول: قرب الجذاذ. أيها الشباب: كم جرد الزرع جراد!

(١) الفوائد (١ / ١٣٩).

يا ابن آدم لا تغررك عافية ... عليك شاملة فالعمر معدودُ
ما أنت إلا كزرع عند خضرته ... بكل شيء من الأوقات مقصودُ
فإن سلمت من الآفات أجمعها ... فأنت عند كمال الأمر محصودُ

واعجبًا يتأمل الحيوان البهيم العواقب وأنت لا ترى إلا الحاضر، ما تكاد تهتم بمؤنة الشتاء حتى يقوى البرد، ولا بمؤنة الصيف حتى يشتد الحر. ومن هذه صفته في أمور الدنيا: ﴿فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

هذا الطائر إذا علم أن الأنثى قد حملت أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع، أفتراك ما علمت قرب رحيلك إلى القبر؟! فهلا بعثت لك فراش تقوى ﴿فَلِأَنفُسِهِمۡ يَمۡهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

هذا اليربوع لا يتخذ بيتًا إلا في موضع طيب مرتفع، ليسلم من سيل أو حافر، ثم لا يجعله إلا عند أكمة أو صخرة لئلا يضل عنه إذا عاد إليه، ثم يجعل له أبوابًا ويرقق بعضها فإذا أتى من باب دفع برأسه ما رقَّ وخرج.

اسمع يا من قد ضيق على نفسه الخناق في فعل المعاصي فما أبقى لعذر موضعًا، يا مقهورًا بغلبة النفس: صُلْ عليها بسوط العزم، فإنها إن علمت جدك استأسرت لك(١)، امنعها ملذوذ مباحها ليقع الصلح على ترك الحرام، فإذا ضجّت لطلب المباح ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان خارجيان خارجان عليك خارجان عنك، فالنفس عدو

---

(١) والنفس كالطفل إن تتركه شبَّ على ... حُـبِّ الرضـاع وإن تفطمه ينفطمِ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مباطن ومن آداب الجهاد ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم﴾ [التوبة: ١٢٣]، ليس من بارز بالمحاربة كمن كَمِن، ما دامت النفس حية تسعى فهي حية تسعى، أقلّ فعل لها تمزيق العمر بكف التبذير، كالخرقاء وجدت صوفًا.

أخلُ بها في بيت الفكر ساعة، وانظر هل هي معك أو عليك؟ نادها بلسان التذكرة: يا نفس ذهب عرش بلقيس وبلي جمال شيرين وتمزق فرش بوران وبقي نسك رابعة.

يا نفس صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تحزم الأجير فإنما هو يوم.

يا هذا ذرات الوجود تستدعيك إلى المُوجِد، ورسائل العتاب على انقطاعك متصلة، فما هذا التوقف؟!

يا هذا، دبِّر دينك كما دبرت دنياك، لو علق بثوبك مسمار رجعت إلى وراء لتخلّصه، هذا مسمار الأضرار قد تشبث بقلبك، فلو عدت إلى الندم خطوتين تخلصت.

هيهات صبي الغفلة كلما حرك نام، يا مجنون الهوى: إما مارستان[1] العزلة وقيد الحمية ومعالجة سلاسل التقوى ومرافقة الصالحين، وإلا فمارستان جهنم في أنكال العقوبة وصحبة إبليس.

كل يوم تحضر مجلس الذكر يقف لك الشيطان على الباب، فإذا خرجت كما

(١) أي: المشفى.

دخلت قال: فديت من لا يفلح!»[(١)].

ولأبي تمام حبيب الطائي:

أَعاذِلَتي ما أخشنَ اللَّيْلَ مَرْكبًا ... وأَخشن منه في المُلِمَّات راكِبُه
ذَرِيني وأهوال الزَّمان أقاسِها ... فأهوالُه العُظْمى تَليها رغائبُه
أرى عاجزًا يُدعى جليدًا لقسمه ... ولو كُلِّفَ المُقْوِي لكلَّتْ مضاربُه
وعفًّا يُسمَّى عاجزًا بعفافِهِ ... ولولا التُّقى ما أعجزته مذاهبُه
وليس بعجزِ المرءِ أخطأه الغنى ... ولا باحتيال أدرك المال كاسبُه

هذا وإن المجاهدة هي جهاد في الحقيقة لأنها جهاد للنفس لأطْرها على طاعة ربها، والنفس حرون شرود تقوى عند المعصية وتضعف عن الطاعة، فلا بد لها من مجاهدة بالعلم والعقل والإرادة بعد الاستعانة لها بمولاها الذي بيده ناصيتها.

«والشهوة إذا اشتعلت واستولت قد تكون أقوى من الغضب، وقد قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]؛ أي ضعيفًا عن النساء لا يصبر عنهن، وفي قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ذكروا منه العشق. والعشق يفضي بأهله إلى الأمراض والإهلاك، وإن كان الغضب قد يبلغ ذلك أيضًا.

وقد دل القرآن على أن القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع

(١) المدهش لابن الجوزي (١ / ١٦٢ - ١٦٥) باختصار يسير.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كثيرة كقوله في سورة هود: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغض بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك مما نهى الله عنه يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله؛ فما ظنك بالذي لم يحُم حول السيئات ولم يعرها طرفه قط ولم تحدثه نفسه بها، بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات؟ فهل هذا وذاك سواء؟! بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك، وحاله أعظم وأعلى ونوره أتمُّ وأقوى.

فإنّ السيئات تهواها النفوس ويزينها الشيطان فتجتمع فيها الشبهات والشهوات. فإذا كان المؤمن قد حبب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به؛ حيث دفع بالعلم الجهل، وبإرادة الحسنات إرادة السيئات، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره أيضًا حتى يدفع جهله بالظلم وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك.

والجهاد تمام الإيمان وسنام العمل كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

وقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية، وقال: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ﴾ الآية [التوبة: ١٩].

فكذلك يكون هذا الجزاء في حق المجاهدين كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] فهذا في العلم والنور، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، إلى قوله: ﴿صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٨].

فقتل النفوس هو قتل بعضهم بعضًا وهو من الجهاد، والخروج من ديارهم هو الهجرة، ثم أخبر أنهم إذا فعلوا ما يوعظون به من الهجرة والجهاد كان خيرًا لهم وأشد تثبيتًا.

ففي الآية أربعة أمور: الخير المطلق، والتثبيت المتضمن للقوة والمكنة، والأجر العظيم، وهداية الصراط المستقيم.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠]، إلى قوله: ﴿عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]، وقال: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤].

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وأما أهل الفواحش الذين لا يغضون أبصارهم ولا يحفظون فروجهم فقد وصفهم الله بضد ذلك: من السكرة والعمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار.

هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام.

فقال عن قوم لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]، فوصفهم بالجهل وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، وقال: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ [القمر: ٣٧].

وقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٤]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، إلى قوله: ﴿ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]، إلى قوله: ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]، وقوله: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات: ٣٤]»(١).

٨ ـ تيئيس النفس من الخيانة والرذيلة، والتصبّر وعسف النفس لركوب رواحل العفاف.

اليأس راحة، وإنّك إذا يأست من شيء زال مِن خاطرك التعلق به، فالنفس

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٩٩، ٤٠٠).

الإنسانية إذا يئست من أمر ارتاحت من الفكر فيه، ثم رغبت عنه إلى غيره. فالمؤمن يقول لنفسه: ليس لك أمل في خيانة أو رذيلة فاقنعي بالحلال المباح تسعدي وتفلحي.

والنفس راغبة إذا رغَّبتها ... وإذا تُردُّ إلى قليل تقنعُ

وقال الحبيب ﷺ: «**من يستعفف يعفُّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبَّر يصبِّره الله، وما أعطي أحد عطاء هو خير وأوسع من الصبر**»(١).

ومن التصبُّر المحمود كتمان الهوى وعدم بثه صيانة للعرض وحفظًا للنفس من التطاول على ما ليس لها، قال شيخ الإسلام: «وفي حديث أبي يحيى القتات عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعًا: «**من عشق فعف وكتم وصبر ثم مات فهو شهيد**»(٢)، وأبو يحيى في حديثه نظر؛ لكن المعنى الذي ذكر فيه دل عليه الكتاب والسنة، فإن الله أمره بالتقوى والصبر، فمن التقوى أن يعفَّ عن كل ما حرم الله من نظر بعين ومن لفظ بلسان ومن حركة بيد ورجل. والصبر أن يصبر عن شكوى به إلى غير الله، فإن هذا هو الصبر الجميل.

وأما الكتمان فيراد به شيئان: أحدهما:

أن يكتم بثَّه وألمه ولا يشكو إلى غير الله، فمتى شكا إلى غير الله نقص صبره، وهذا أعلى الكتمانين؛ لكن هذا لا يصبر عليه كل أحد؛ بل كثير من الناس

---

(١) البخاري (٢/١٥١). ومسلم (٣/١٠٢).

(٢) ولا يصحُّ مرفوعًا، وانظر كلام شيخ الإسلام أيضًا عليه في التفسير الكبير (٣/٢٣٥-٢٣٧)، ومجموع الفتاوى (١٤/ ٤٦٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يشكو ما به، وهذا على وجهين:

فإن شكا ذلك إلى طبيب يعرف طب النفوس ليعالج نفسه بعلاج الإيمان فهو بمنزلة المستفتي وهذا حسن.

وإن شكا إلى من يعينه على المحرم فهذا حرام. وإن شكا إلى غيره لما في الشكوى من الراحة كما أن المصاب يشتكي مصيبته إلى الناس من غير أن يقصد تعلم ما ينفعه ولا الاستعانة على معصية فهذا ينقص صبره؛ لكن لا يأثم مطلقًا إلا إذا اقترن به ما يحرم كالمصاب الذي يتسخط.

والثاني: أن يكتم ذلك فلا يتحدث به مع الناس لما في ذلك من إظهار السوء والفاحشة، فإن النفوس إذا سمعت مثل هذا تحركت وتشهَّت وتمنَّت وتتيمت.

والإنسان متى رأى أو سمع أو تخيل من يفعل ما يشتهيه كان ذلك داعيًا له إلى الفعل.

فإذا تخيلت النفس تلك الأمور المتعلقة به انقلبت إلى تخيلات أخرى فتحركت داعية المحبة سواء كانت المحبة محمودة أو مذمومة... فالمبتلى بالفاحشة والعشق إذا ذكر ما به لغيره تحركت النفوس إلى جنس ذلك؛ لأن النفوس مجبولة على حب الصور الجميلة؛ فإذا تصورت جنس ذلك تحركت إلى المحبوب؛ ولهذا نهى الله عن إشاعة الفاحشة»[(١)].

والمقصود؛ أن كتمانه محمود من هذه الحيثية؛ لأنه امتثل أمر ربه فلم يُشع

(١) مجموع الفتاوى (١٤ / ٢٠٨، ٢٠٩) باختصار.

الفاحشة ولو بمجرد ذكرها أو مقدماتها ودواعيها للناس، وهو مأجور على هذا الكتمان الشريف.

٩ ـ صحبة الصالحين وأهل العفاف:

فالصاحب ساحب إما للخير والهدى أو للشر والضلال، ومن زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على التأثر سلبًا وإيجابًا بالأصحاب، حتى وإن لم يظهر ذلك سريعًا، فالتأثر ينبت في أعماق النفس شيئًا فشيئًا، وقد يتلاشى بعوامل أخرى كالمجاهدة أو التعلّم النافع أو ترك الصحبة أو تغير أخلاق الصاحب، وقد يزداد ويكبر ويثمر المشاكلة ظاهرًا عبر التقليد في المظهر أو الكلام أو الهمة أو التشجيع أو التحزبات وغير ذلك.

إذا تبين ذلك فعليك بمصاحبة الصالحين والأخيار من طلبة العلم والدعاة والعُبّاد الأتقياء الأنقياء الأخفياء، وحضور مجالس العلم والذكر، والبعد عن مصاحبة أهل الشر والفجور والضلال والغواية، والبعد عن مجالس الشر والسوء، فمصاحبة الفريق الأول: شفاء ونجاة وفلاح وفوز في الدنيا والآخرة، ومصاحبة الفريق الثاني: داء وهلاك وخسران في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف:٦٧].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثل الجليس الصالح كبائع المسك، إذا لم تشتر منه شممت منه رائحة طيبة، ومثل الجليس السوء كنافخ الكير، إذا لم يحرقك لجلوسك معه شممت منه رائحة**

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كريمة»(١).

١٠ ـ إشغال النفس بالخير حتى لا تفرغ للشر.

فالنفس كالرّحى، تدور بلا توقف، وهي تطحن ما يُلقى فيها كيفما كان من خير أو ضده، فإن انشغل المؤمن بالخير والعبادة وتحصيل سبل عيشه الكريمة وقام بمصالحه؛ انسد على النفس أن تأمره بسوء لأنه قد أشغلها عن طلبه والفكر فيه. والنفس إن لم تُشغل بالطاعة اشتغلت بالمعصية. وقد أوصى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أصحابه بقوله: الراحة للرجال غفلة.

فإن استراح المرء وأخلد للترفّه وطلب أسباب غفلته فإنه بذلك يكون قد أشرع أبواب قلبه للتوافه والغفلات، فدبّت إليه عناكب السوء فبنت بيوت الغفلة وحجبت عن بصيرته رؤية مصالحه الحقيقة بتحصيلها والتي خُلق لأجلها، والله المستعان.

فعليك بطلب العلم الشرعي والاجتهاد في حفظ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وليكن عندك همة عالية، وليكن لك أهداف عالية سامقة في هذه الحياة، بأن تكون داعيًا إلى سبيل الله على بصيرة وعلم، سابقًا عملُك قولَك وهُداك هدايتَك واستقامتُك تقويمَك.

وأكثِر من القراءة في الكتب التي ترقق القلب وتحفِّز على فعل الطاعات وترك المنكرات، وكذلك سماع ما أمكنك من مرقّقات القلوب التي هي

(١) البخاري (٢١٠١-٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨).

كالسياط الناصحة لدابة رحلتك للدار الآخرة!

١١ ـ تجديد التوبة وتعاهدها على الدوام:

فالتوبة مرافقة للعبد في كل شأنه حتى يستحق خِلْعة العبد التائب من لدن الرب التوّاب جل وعلا. «وفي قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فوائد جليلة: منها أن أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي ترك غض البصر وحفظ الفرج وترك إبداء الزينة وما يتبع ذلك، فمستقل ومستكثر.

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: «**كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(١).

وفي الصحيح عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم**»(٢).

في الصحيحين عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمَمِ مما قال أبو هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: «**إنّ الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تَمَنّى وتشتهي،**

---

(١) رواه الترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وحسنه الألباني في تخريج المشكاة (٢٣٤١).
(٢) مسلم (١٧/٨) (٢٥٧٧) (٥٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والفرج يصدّق ذلك أو يكذبه»(١).

وعن ابن عباس في قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]: قال رسول الله ﷺ: «**إنْ تغفرِ اللّهمَّ تغفرْ جمًّا، وأيُّ عبدٍ لكَ لا ألمَّا**»(٢).

وأهلُ الفواحش مأمورون بالتوبة، وإنما أمروا بها لتُقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الشورى: ٢٥].

وسواء كانت الفواحش مغلظة لشدتها وكثرتها ـ كإتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط أو غير ذلك ـ وسواء تاب الفاعل أو المفعول به، فمن تاب تاب الله عليه. بخلاف ما عليه طائفة من الناس فإنهم إذا رأوا من عمل من هذه الفواحش شيئًا أيّسوه من رحمة الله(٣). حتى يقول أحدهم: من عمل من ذلك شيئًا لا يفلح أبدًا، ولا يرجون له قبول توبة.

وهؤلاء قد لا يعلمون صورة التوبة، وقد يكون هذا حالًا وعملًا لأحدهم، وقد يكون اعتقادًا، فهذا من أعظم الضلال والغي؛ فإن القنوط من رحمة الله

---

(١) البخاري (٨/٦٧، ١٥٦)، و(مسلم) (٨/٥٢) بنحوه.

(٢) الترمذي (٣٢٨٤)، وصححه الألباني.

(٣) والشدة في غير موضعها سبب لتنفير الناس من التديُّن والعبادة، وما أقبح أثر الشديد في موضع الرفق على نفوس بعض العصاة!

بمنزلة الأمن من مكر الله تعالى. وحالهم مقابل لحال مستحلي الفواحش؛ فإن هذا أمن مكر الله بأهلها وذاك قنّط أهلها من رحمة الله؛ والفقيه كل الفقيه هو الذي لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرئهم على معاصي الله»[١].

وقد أحسن شيخ الإسلام بتنبيهه لهذا السلوك السيء المخالف للحكمة في الدعوة إلى سبيل الله تعالى، فهو ملحظ مهم ورسالة لطيفة لطائفة ممن شدّدوا في الإنكار حتى جاوزوا حدوده، فكانت النتيجة تيئيس عباد الله من رحمته!

وقد يكون حال من أنكروا عليه خيرًا من حالهم لحسنات ماحية لديه أو لذنوب خفية لديهم، أو لإحسان توبته اللاحقة وجميل موافاته بخلافهم، أو غير ذلك. والله المستعان.

فإن الفقيه كل الفقه هو من لا يؤيس الناس من رحمة الله ولا يجرّئُهم على معاصي الله، بل يستعمل الحكمة وهي الرحمة واللطف في موضعه والشدة والحزم في موطنه، مع استحضار الرفق في شأنه كله فهو الأصل ولا يُرغب عنه إلا لمرجّح قوي واضح سالم من المعارضة الراجحة، وحتى في الشدّة لابد أن يصحبها شيء من الرفق، فما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نُزع من شيء إلا شانه.

والمقصود: أن على الناهي عن المنكرات أن يستصحب الرفق والنصح ومحبة الخير للناس، وأن يكون حكيمًا، وأن يعدَّ تعامله مع الناس من صالح

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/ ٤٠٤، ٤٠٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أعماله عند ربه، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

١٢ ـ غضُّ السمع والبصر:

وهذا أمر في غاية الأهمية والخطر، فإن الأذن والعين بوابتا القلب القريبتان منه، وكل كلام في غض البصر فهو منسحب على السمع كذلك، فالحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا، وحيثما خِيفت الفتنة وجب الغض.

ففي زماننا انتشرت فتن السمع والبصر، ومع وسائل التواصل والهواتف ونحوها دخل الشيطان بجنده بقوة إلى قلوب العباد فعاث فيها فسادًا، وعصف بسكينتها الإيمانية فصار كثير منها يبابًا، حيث صار الحديث الفاتن بين الجنسين سهلًا ميسورًا إلا لدى من حفظ الله دينه بعفاف وورع! وقديمًا قال بشار بن برد ـ وكان كفيفًا ـ:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقةٌ والأذن تعشق قبل العين أحيانًا

وكم من حديث يبدأ بلا ريبة فما هو إلا أن تتكسر فيه الفتاة وتتغنج فيذوب قلب الرجل في أتون الفتنة والغواية ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] فالرجل أضعف ما يكون إذا فتح قلبه لامرأة.

قال طاووس في قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]: "أي في أمر النساء، ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في النساء. وقال وكيع:

يذهب عقله عندهن»[١].

فالمقصود؛ أنّ أمر السماع بين الجنسين لا يقل خطرًا عن البصر، بل قد يشتد عند بعضهم خاصة إن ساعد على ذلك تغنج ونحوه منها، أو حنان واهتمام منه، إذ الشيطان يعرف مكامن ضعف النفوس ومواطن حاجاتها التي يدخل منها فيفسد ما صلح ويهدم ما بُنى.

وبالجملة؛ فالواجب غلق الأبواب الموصلة لفساد القلب، ومن ذلك غض البصر ـ وهو الأصل ـ وغض السمع، ورب العزة يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وكم من امرئ صالح وامرأة صالحة ممن أمضوا في الاستقامة دهرًا حتى إذا أدرك الشيطان لحظات ضعف ودقائق هوى فأودت بصلاحهما أسفل سافلين، فاحتاج القلب أزمانًا ليعود لجمعيته على ربه وتنظيف روحه من درن الخطيئة، والله المستعان.

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فلما كان غض البصر أصلًا لحفظ الفرج بدأ بذكره... وقد جعل الله سبحانه العين مرآة القلب فإذا غض العبد بصره غض

(١) الدر المنثور (٤ / ٣٤٧).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

القلب شهوته وإرادته وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته»(١).

وتأمل كيف سمى الشارع طرائق الزنا ومقدمات الفاحشة زنا، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**كُتب على ابن آدم نصيبه من الزنا، مدركٌ ذلك لا محالة؛ فالعينان زناهما النظر، والأذنان زناهما الاستماع، واللسان زناه الكلام، واليد زناها البطش، والرجل زناها الخُطا، والقلب يهوى ويتمنى، ويصدّق ذلك الفرج ويكذِّبه**»(٢).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: «الزكاة والتقوى التي بها يستحق الإنسان الجنة، كما في صحيح البخاري، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من تكفَّل لي بحفظ ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة**»(٣).

ومن تزكَّى فقد أفلح فيدخل الجنة؛ والزكاة متضمنة حصول الخير وزوال الشر فإذا حصل الخير وزال الشر ـ من العلم والعمل ـ حصل له نور وهدى ومعرفة وغير ذلك، والعمل يحصل له محبة وإنابة وخشية وغير ذلك. هذا لمن ترك هذه المحظورات وأتى بالمأمورات، ويحصل له ذلك أيضا قدرة وسلطانًا وهذه صفات الكمال: العلم والعمل والقدرة وحسن الإرادة.

وقد جاءت الآثار بذلك وأنه يحصل لمن غض بصره نور في قلبه ومحبة كما جرب ذلك العالمون العاملون.

---

(١) روضة المحبين (٩٢).

(٢) مسلم (٢٦٥٧).

(٣) البخاري (٦٤٧٤).

وفي مسند أحمد عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة، ثم يغض بصره؛ إلا أخلف الله له عبادةً يجدُ حلاوتها**»(١).

وعن مجاهد قال: «غض البصر عن محارم الله يورث حب الله».

وعن جرير بن عبد الله البجلي قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»(٢).

عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ لعلي: «**يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الأخرى**»(٣).

وتأمل كيف فعلت النظرة الواحدة بقلب ابن عجلان لما أطالها حتى انتهى أمره للوفاة دنفًا وعشقًا! وقد جُن غيره كقيس العامري مع ليلاه، فقد "ذكروا أن عبد الله بن عجلان النَّهدي القضاعي، صاحب هند النهدية، وهو أقل العشاق أيامًا، خرج يومًا إلى شعب في نجد ينشد ضالَّةً، فشارف على ماء نهر يقال له غسّان، فلما علا ربوة تُشْرِفُ عليه إذ بنات قد خلعن ثيابهن يغتسلن في الماء، فكمن ينظر مستخفيًا(٤).

فخرجن حتى بقيت هند وكانت طويلة الشعر، فأخذت تمشطه وتسرحه

---

(١) ضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥٢٢١).

(٢) مسلم (٦/١٨١، ١٨٢) (٢١٥٩).

(٣) أحمد (٥/٣٥١)، وأبو داود، وحسنه الألباني، وورد بألفاظ: «**الثانية**»، «**الآخرة**».

(٤) فلم يكتف بالنظرة الأولى، بل كرر وتمعَّن وتأمَّلَ حتى اخترم سقم الهوى قلبه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وتسببه على بدنها، وهو يتأمل شفوف بياض جسدها من خلال سواد شعرها، فتمكَّن الهوى من سويدائه.

فنهض ليركب راحلته فعجز وأُقْعِدَ ساعةً مبهوتًا مما جرى من عقره، فلم يستطع ركوب ناقته بعدما كانت تصفُّ أمامه ثلاث رواحل فيقفزها ويرتحل الرابعة، فقال وقد عرف ما داخله من الحب الذي أعجزه وعطل حركته:

لقد كنتُ ذا بأسٍ شديدٍ وهمَّةٍ ... إذا شئتُ لَمْسًا للثُّريا لمستُهَا
أتَتْنِي سهامٌ من لحاظٍ فأرشقتْ ... بقلبي ولو استطيعُ رددتُّهَا

ثم قال: هذه والله الضّالّة التي لا تُرَدُّ، فخطبها إلى أبيها فزوَّجه[١]، ومضى عليهما ثمان سنين في أحسن مقام وأهنأ حال، ولما لم تحبل منه أراد والده تزويجه فأبى، فلما ألحَّ عليه عرض عليها أن يأخذ غيرها، فأبت أن تكون مع أخرى، ثم إنه سَكِرَ يومًا[٢] فجمع أبوه وجوه الناس وطلبوا إليه فراقها فطلقها في حال سكره، فلما أفاق احتجبت عنه، وزُوّجت بعدُ لغيره، فذاب حاله كمدًا، فمات عشقًا قبل الفيل بأربع سنين.

وقيل: إنه ذهب إليها في مضارب زوجها، وكان من بني نمير، فرآها جالسة في حوض فدنا منها فتعانقا وسقطا ميتين»[٣].

---

(١) وليت كل من هوى امرأة طرق باب أهلها للزواج، فالكثير من صرعى الهوى لا يفعلون إما عجزًا أو ضعفًا أو يأسًا أو استحالة أو غير ذلك.

(٢) وهذا من شؤم أم الخبائث!

(٣) وقد يجمع الله الشتيتين (٧٧) للمؤلف.

وقال بعض السلف: النظر سهم سمٍّ إلى القلب. فلهذا أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بغض الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك.

وقد مر حديث أبي هريرة الصحيح عن النبي ﷺ: **«فالعينان زناهما النظر»**[1]. ولقد كانوا ينهون أن يحد الرجل بصره إلى المردان، وكانوا يتهمون من فعل ذلك في دينه.

وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنه لا يجوز للمرأة أن تنظر إلى الأجانب من الرجال بشهوة ولا بغير شهوة أصلًا.

«وأما النور والعلم والحكمة فقد دل عليه قوله تعالى في قصة يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]، فهي لكل محسن.

وفي هذه السورة ذكر آية النور بعد غض البصر وحفظ الفرج وأمره بالتوبة مما لا بد منه أن يدرك ابن آدم من ذلك. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا الحسين الوراق يقول: من غض بصره عن محرم أورثه الله بذلك حكمة على لسانه يهتدي بها ويهدي بها إلى طريق مرضاته.

وهذا لأن الجزاء من جنس العمل؛ فإذا كان النظر إلى محبوب فتركه لله عوضه الله ما هو أحب إليه منه. وإذا كان النظر بنور العين مكروهًا أو إلى مكروه فتركه لله أعطاه الله نورًا في قلبه وبصرًا يبصر به الحق.

---

(١) مسلم (٢٦٥٧). وأحمد (٨٥٣٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قال شاه الكرماني: من غض بصره عن المحارم، وعمر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتباع السنة، وعود نفسه أكل الحلال، وكف نفسه عن الشهوات؛ لم تخطئ له فراسة.

وإذا صلح علم الرجل فعرف الحق وعمله واتبع الحق؛ صار زكيًّا تقيًّا مستوجبًا للجنة»(١).

وقال ابن تيمية: «وإذا أحب امرأة في الدنيا ولم يتزوجها وتصدق بمهرها وطلب من الله تعالى أن تكون له زوجة في الآخرة رجي له ذلك من الله تعالى.

ولا يحرم في الآخرة ما يحرم في الدنيا من التزوج بأكثر من أربع، والجمع بين الأختين، ولا يمنع من أن يجمع المرأة وبينها هناك»(٢).

واعلم أن النظر لمخلوقات الله يختلف حكمه بحسب متعلّقه، «وذلك أن الإنسان قد ينظر إلى إنسان لما فيه من الإيمان والتقوى، وهنا الاعتبار بقلبه وعمله لا بصورته، وقد ينظر إليه لما فيه من الصورة الدالة على المصور فهذا حسن.

وقد ينظر إليه من جهة استحسان خلقه كما ينظر إلى الخيل والبهائم وكما ينظر إلى الأشجار والأنهار والأزهار.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٣٩٣ - ٣٩٧) مختصرًا.

(٢) المستدرك على مجموع فتاوى ابن تيمية (٤ / ١٣٢)، وانظر: الاختيارات (٢١٧) (٢/ ٢٨٩).

فهذا أيضًا إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرئاسة والمال فهو مذموم بقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١].

وأما إن كان على وجه لا ينقص الدين وإنما فيه راحة النفس فقط؛ كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي لا يستعان به على الحق.

وكل قسم من هذه الأقسام متى كان معه شهوة كان حرامًا بلا ريب، سواء كانت شهوة تمتع بالنظر أو كان نظرًا بشهوة الوطء، وفرق بين ما يجده الإنسان عند نظره إلى الأشجار والأزهار وما يجده عند نظره إلى النسوان والمردان.

فلهذا الفرقان افترق الحكم الشرعي فصار النظر إلى المردان ثلاثة أقسام:

أحدها: ما تقترن به الشهوة. فهو محرم بالاتفاق.

والثاني: ما يجزم أنه لا شهوة معه. كنظر الرجل الورع إلى ابنه الحسن وابنته الحسنة وأمه الحسنة، فهذا لا يقترن به شهوة إلا أن يكون الرجل من أفجر الناس، ومتى اقترنت به الشهوة حرم. وعلى هذا نظر من لا يميل قلبه إلى المردان كما كان الصحابة وكالأمم الذين لا يعرفون هذه الفاحشة، فإن الواحد من هؤلاء لا يفرق من هذا الوجه بين نظره إلى ابنه وابن جاره وصبي أجنبي لا يخطر بقلبه شيء من الشهوة؛ لأنه لم يعتد ذلك وهو سليم القلب من قبل ذلك.

وقد كانت الإماء على عهد الصحابة يمشين في الطرقات منكشفات الرؤوس ويخدمن الرجال مع سلامة القلوب، فلو أراد الرجل أن يترك الإماء

التركيات الحسان يمشين بين الناس في مثل هذه البلاد والأوقات كما كان أولئك الإماء يمشين كان هذا من باب الفساد.

وكذلك المردان الحسان لا يصلح أن يخرجوا في الأمكنة والأزقة التي يخاف فيها الفتنة بهم إلا بقدر الحاجة، فلا يُمكّن الأمرد الحسن من التبرج ولا من الجلوس في الحمام بين الأجانب ولا من رقصه بين الرجال ونحو ذلك مما فيه فتنة للناس والنظر إليه كذلك.

القسم الثالث: النظر إليه بغير شهوة لكن مع خوف ثورانها. ففيه وجهان في مذهب أحمد أصحهما وهو المحكي عن نص الشافعي وغيره أنه لا يجوز وهو الراجح. كما أن الراجح في مذهب الشافعي وأحمد أن النظر إلى وجه الأجنبية من غير حاجة لا يجوز وإن كانت الشهوة منتفية؛ لكن لأنه يخاف ثورانها؛ ولهذا حرم الخلوة بالأجنبية؛ لأنه مظنة الفتنة.

والأصل: أنّ كل ما كان سببًا للفتنة فإنه لا يجوز، فإن الذريعة إلى الفساد يجب سدّها إذا لم يعارضها مصلحة راجحة.

ولهذا كان النظر الذي قد يفضي إلى الفتنة محرمًا إلا إذا كان لحاجة راجحة مثل نظر الخاطب والطبيب وغيرهما فإنه يباح النظر للحاجة مع عدم الشهوة. وأما النظر لغير حاجة إلى محل الفتنة فلا يجوز.

ومن كرر النظر إلى الأمرد ونحوه وأدامه وقال: إني لا أنظر لشهوة كذب في ذلك، فإنه إذا لم يكن له داع يحتاج معه إلى النظر لم يكن النظر إلا لما يحصل في القلب من اللذة بذلك.

وأما نظر الفجأة فهو عفو إذا صرف بصره كما ثبت في الصحاح عن جرير قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظر الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»(١). وفي السنن أنه قال لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**يا علي، لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الأخرى**»(٢).

ولهذا يقال: إنّ غض البصر عن الصورة التي ينهى عن النظر إليها كالمرأة والأمرد الحسن يورث ذلك ثلاث فوائد جليلة القدر:

أحدها: حلاوة الإيمان ولذته التي هي أحلى وأطيب مما تركه لله، فإن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه. والنفس تحب النظر إلى هذه الصور لا سيما نفوس أهل الرياضة والصفاء؛ فإنه يبقى فيها رقة تنجذب بسببها إلى الصور حتى تبقى الصورة تخطف أحدهم وتصرعه كما يصرعه السبع!

ولهذا قال بعض التابعين: ما أنا على الشاب التائب من سبع يجلس إليه بأخوف عليه من حدث جميل يجلس إليه.

وقال بعضهم: اتقوا النظر إلى أولاد الملوك ـ أو الأغنياء ـ فإن فتنتهم كفتنة العذارى.

وما زال أئمة العلم والدين ـ كأئمة الهدى وشيوخ الطريق ـ يوصون بترك

---

(١) مسلم (٦/ ١٨١، ١٨٢) (٢١٥٩).

(٢) أحمد (٥/ ٣٥١)، وأبو داود، وحسنه الألباني، وورد بألفاظ: «**الثانية**»، «**الآخرة**». ومرّ قريبًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

صحبة الأحداث حتى يروى عن فتح الموصلي أنه قال: صحبت ثلاثين من الأبدال كلهم يوصيني عند فراقه بترك صحبة الأحداث. وقال بعضهم: ما سقط عبد من عين الله إلا ابتلاه بصحبة هؤلاء الأنتان.

ثم النظر يولد المحبة فيكون علاقة؛ لتعلق القلب بالمحبوب، ثم صبابة؛ لانصباب القلب إليه ثم غرامًا؛ للزومه للقلب، كالغريم الملازم لغريمه، ثم عشقًا إلى أن يصير تتيمًا، والمتيم المُعَبّد، وتيم الله عبد الله، فيبقى القلب عبدًا لمن لا يصلح أن يكون أخًا ولا خادمًا(١).

وهذا إنما يبتلى به أهل الإعراض عن الإخلاص لله الذين فيهم نوع من الشرك، وإلا فأهل الإخلاص كما قال الله تعالى في حق يوسف عليه السلام: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

فامرأة العزيز كانت مشركة فوقعت مع تزوجها فيما وقعت فيه من السوء، ويوسف عليه السلام مع عزوبته ومراودتها له واستعانتها عليه بالنسوة وعقوبتها له بالحبس على العفة؛ عصمه الله بإخلاصه لله تحقيقا لقوله: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر: ٣٩، ٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]. والغي: هو اتباع الهوى. وهذا الباب من أعظم أبواب اتباع الهوى.

---

(١) وانظر ما سبق في كتاب المحبة، ففيه مزيد بسط وتفصيل.

وأما الفائدة الثانية في غض البصر: فهي نور القلب والفراسة. قال تعالى عن قوم لوط: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]، فالتعلق بالصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة وسكر القلب بل جنونه كما قيل:

قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم ... العشقُ أعظمُ مما بالمجانين
العشق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإنما يصرعُ المجنون في الحين

وذكر الله سبحانه آية النور عقيب آيات غض البصر فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥].

والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله، فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف ونحو ذلك مما ينال ببصيرة القلب.

الفائدة الثالثة: قوة القلب وثباته وشجاعته. فيجعل الله له سلطان البصيرة مع سلطان الحجة. ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذل النفس وضعفها ومهانتها ما جعله الله لمن عصاه، فإن الله جعل العزة لمن أطاعه والذلة لمن عصاه.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ولهذا كان في كلام الشيوخ: الناس يطلبون العز بأبواب الملوك ولا يجدونه إلا في طاعة الله. وكان الحسن البصري يقول: إنهم وإن هملجت بهم البراذين وطقطقت بهم ذلل البغال؛ فإن ذل المعصية في رقابهم، أبى الله إلا أن يذل من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عصاه.

ومن أطاع الله فقد والاه فيما أطاعه فيه، ومن عصاه ففيه قسط من فعل من عاداه بمعاصيه. وفي دعاء القنوت: «إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت»(١). والله تعالى يجمع لأوليائه المتقين خير الدنيا والآخرة ويجعل لأعدائه الصفقة الخاسرة»(٢).

وذكر ابن القيم فوائد أخرى لغض البصر عن المحارم فقال: «وفي غض البصر عدة فوائد، منها:

تخليص القلب من ألم الحسرة. فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضرّ شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه وذلك غاية ألمه وعذابه.

وكنت متى أرسلت طرفك رائدًا ... لقلبك يوما أتعبتك المناظرُ
رأيت الذي لا كله أنت قادر ... عليه ولا عن بعضه أنت صابرُ

والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرمية فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس فإن لم يحرقه كله أحرقت بعضه كما قيل:

---

(١) أخرجه أبو داود (١٤٢٥)، والترمذى (٣٢٨/٢)، والنسائى (٢٥٢/١)، وصححه الألباني في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٢ / ١٧٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥ / ٤١٠ - ٤٢٧) بتصرف واختصار.

كـلّ الحوادثِ مبـدَاهَـا من النظرِ ومعظمُ النارِ من مُستصغَرِ الشـــررِ
كم نظرةٍ فتكتْ في قلب صـــاحبها فتـكَ الســهـام بلا قوسٍ ولا وَتَرِ
والمـرءُ مـا دامَ ذا عـينٍ يُـقَـلِّـبُـهَـا في أعينِ الغِيـدِ موقوفٍ على الخطرِ
يســـــرُّ مقلتَـهُ مـا ضَرَّ مُهْجَتَـهُ لا مرحبًا بســـرورٍ عادَ بالضـــررِ

والناظر يرمي من نظره بسهام غَرَضُها وهدفها ومرمِيَّتُها قلبه وهو لا يشعر، فهو إنما يرمي قلبه!

ومنها: أنه يورث القلب سرورًا وفرحة وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر. وذلك لقهره عدوه بمخالفته ومخالفة نفسه وهواه.

وأيضًا: فإنه لما كف لذته وحبس شهوته لله وفيها مسرَّة نفسه الأمارة بالسوء أعاضه الله سبحانه مسرَّة ولذة أكمل منها، كما قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب.

ولا ريب أن النفس إذا خالفت هواها أعقبها ذلك فرحًا وسرورًا ولذة أكمل من لذة موافقة الهوى بما لا نسبة بينهما، وهاهنا يمتاز العقل من الهوى.

ومنها: أنه يخلّص القلب من أسر الشهوة. فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه فهو كما قيل:

طليق برأي العين وهو أسيرُ

ومتى أسرت الشهوة والهوى القلب تمكن منه عدوه وسامه سوء العذاب وصار:

شبكة الألوكة
www.alukah.net

كعصـــفورة في كفِّ طفلٍ يســـومُهَا حياضَ الرَّدَى والطفـلُ يلهو ويلعبُ

ومنها: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم. فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل، وتحريم الرب تعالى وشرعه حجاب مانع من الوصول. فمتى هتك الحجاب ضري على المحظور ولم تقف نفسه منه عند غاية.

فإنّ النفس في هذا الباب لا تقنع بغاية تقف عندها، وذلك أن لذتها في الشيء الجديد. فصاحب الطارف لا يقنعه التليد(١)، وإن كان أحسن منه منظرًا وأطيب مخبرًا.

فغض البصر يسد عنه هذا الباب الذي عجزت الملوك عن استيفاء أغراضهم فيه.

ومنها: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته. فإن إطلاق البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفَّة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب، فإن خاصة العقل ملاحظة العواقب. ومرسل النظر لو علم ما تجني عواقب نظره عليه لما أطلق بصره.

وأعقل الناس من لم يرتكب سـببًا حتـى يـفـكـر مـا تجـنـي عـواقـبـه

ومنها: أنه يخلص القلب من سكر الشهوة ورقدة الغفلة فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة ويوقع في سكرة العشق كما قال الله تعالى عن عشاق الصور: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢].

فالنظرة كأس من خمر، والعشق هو سكر ذلك الشراب. وسكر العشق

---

(١) الطارف: الجديد. والتليد: القديم.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

أعظم من سكر الخمر، فإن سكران الخمر يفيق وسكران العشق قلما يفيق إلا وهو في عسكر الأموات، كما قيل:

سُكرانُ سكرُ هوًى وسُكرُ مدامة ومتى إفاقته من به سكران

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعافُ أضعافِ ما ذكرنا، وإنما نبهنا عليه تنبيهًا، ولا سيما النظر إلى من لم يجعل الله سبيلًا إلى قضاء الوطر منه شرعًا كالمردان الحسان، فإن إطلاق النظر إليهم السم الناقع والداء العضال»[(١)].

بل قد يكون ذلك المتساهل بالنظر الحرام ممن نكس الله فطرهم فمالوا إلى الذكران وشابهوا قوم لوط عليه السلام الذين سحقهم الله بعذاب لم يعذب به مثلهم أحدًا من العالمين، فقد ابتلي بعض الناس بحب المردان.

وقد سئل شيخ الإسلام عن حكم مسِّهم بشهوة، وهل ينقض الوضوء فقال رحمه الله: «إذا مسّ الأمرد لشهوة ففيه قولان في مذهب أحمد وغيره: أحدهما: أنه كمس النساء لشهوة ينقض الوضوء، وهو المشهور في مذهب مالك، وذكره القاضي أبو يعلى في شرح المذهب، وهو أحد الوجهين في مذهب الشافعي.

والثاني: أنه لا ينقض وهو المشهور من مذهب الشافعي. والقول الأول أظهر، فإن الوطء في الدبر يفسد العبادات التي تفسد بالوطء في القبل، كالصيام والإحرام والاعتكاف، ويوجب الغسل كما يوجبه هذا؛ فتكون مقدمات هذا في

---

(١) روضة المحبين (١٠١ – ١٠٥) باختصار وتصرف.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

باب العبادات كمقدمات هذا.

والذي لا ينقض الوضوء بمسه يقول: إنه لم يخلق محلًّا لذلك. فيقال: لا ريب أنه لم يخلق لذلك، وأن الفاحشة اللوطية من أعظم المحرمات؛ لكن هذا القدر لم يعتبر في بعض الوطء، فلو وطئ في الدبر تعلق به ما ذكر من الأحكام، وإن كان الدبر لم يخلق محلًّا للوطء، مع أن نفرة الطباع عن الوطء في الدبر أعظم من نفرتها عن الملامسة.

ومس الأمرد لشهوة حرام بإجماع المسلمين، والجمهور على أن عقوبة اللوطي أعظم من عقوبة الزنا بالأجنبية فيجب قتل الفاعل والمفعول به، سواءً كان أحدهما محصنًا أو لم يكن، وسواء كان أحدهما مملوكًا للآخر أو لم يكن.

كما جاء ذلك في السنن عن النبي ﷺ وعمل به أصحابه من غير نزاع يعرف بينهم، وقتله بالرجم كما قتل الله قوم لوط؛ وبذلك جاءت الشريعة في قتل الزاني أنه بالرجم، فرجم النبي ﷺ ماعز بن مالك والغامدية واليهوديين والمرأة التي أرسل إليها أنيسًا وقال: «**اذهب إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجمها**» فرجمها[1].

ومتى خرج الخطاب عن العادة خرج به عن نظائره، فإذا كان في ظهور الأمة والنظر إليها فتنة وجب المنع من ذلك، كما لو كانت في غير ذلك، وهكذا الرجل مع الرجال والمرأة مع النساء؛ لو كان في المرأة فتنة للنساء وفي الرجل فتنة للرجال لكان الأمر بالغض للناظر من بصره متوجهًا كما يتوجه إليه الأمر

(١) البخاري (٨/ ٢٠٧)، ومسلم (٥/ ١٢١).

بحفظ فرجه. فالإماء والصبيان إذا كن حسانًا تُخشى الفتنة بالنظر إليهم كان حكمهم كذلك كما ذكر ذلك العلماء.

قال المروذي: قلت لأبي عبد الله ـ يعني أحمد بن حنبل ـ: الرجل ينظر إلى المملوك؟ قال: إذا خاف الفتنة لم ينظر إليه، كم نظرة ألقت في قلب صاحبها البلابل!

وقال المروذي أيضًا: قلت لأبي عبد الله: رجل تاب وقال: لو ضرب ظهري بالسياط ما دخلت في معصية إلا أنه لا يدع النظر. فقال: أي توبة هذه؟! قال جرير سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «**اصرف بصرك**»(١).

وقال الحسن بن ذكوان: لا تجالسوا أولاد الأغنياء فإن لهم صورًا كصور النساء، وهم أشد فتنة من العذارى.

وهذا الاستدلال والقياس والتنبيه بالأدنى على الأعلى، وكان يقال: لا يبيت الرجل في بيت مع الغلام الأمرد. وقال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون مجالسة الأغنياء وأبناء الملوك. وقال: مجالستهم فتنة إنما هم بمنزلة النساء.

ووقفت جارية لم ير أحسن وجهًا منها على بشر الحافي فسألته عن باب حرب فدلها، ثم وقف عليه غلام حسن الوجه فسأله عن باب حرب فأطرق رأسه فرد عليه الغلام السؤال فغمَّض عينيه.

فقيل له: يا أبا نصر جاءتك جارية فسألتك فأجبتها، وجاءك هذا الغلام

---

(١) مسلم (٦/ ١٨١، ١٨٢) (٢١٥٩).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فسألك فلم تكلمه فقال: نعم، يروى عن سفيان الثوري أنه قال: مع الجارية شيطان ومع الغلام شيطانان، فخشيت على نفسي شيطانيه.

وروى أبو الشيخ القزويني بإسناده عن بشر أنه قال: احذروا هؤلاء الأحداث.

وقال فتح الموصلي: صحبت ثلاثين شيخًا كانوا يعدون من الأبدال كلهم أوصاني عند مفارقتي له: اتق صحبة الأحداث، اتق معاشرة الأحداث.

وكان سفيان الثوري لا يدع أمردًا يجالسه. وكان مالك بن أنس يمنع دخول المرد مجلسه للسماع، فاحتال هشام فدخل في غمار الناس مستترًا بهم وهو أمرد فسمع منه ستة عشر حديثًا، فأُخبر بذلك مالك فضربه ستة عشر سوطًا، فقال هشام: ليتني سمعت مئة حديث وضربني مئة سوط! وكان يقول: هذا علم إنما أخذناه عن ذوي اللحى والشيوخ فلا يحمله عنا إلا أمثالهم.

وقال يحيى بن معين: ما طمع أمرد أن يصحبني، ولا أحمد بن حنبل في طريق. وروى ابن الجوزي بإسناده عن سعيد بن المسيب قال: إذا رأيتم الرجل يلحّ بالنظر إلى الغلام الأمرد فاتهموه. وقد روي في ذلك أحاديث ضعيفة.

وكذلك المرأة مع المرأة، وكذلك محارم المرأة مثل ابن زوجها وابنه وابن أخيها وابن أختها ومملوكها ـ عند من يجعله محرمًا ـ متى كان يخاف عليه الفتنة أو عليها توجه الاحتجاب، بل وجب.

وهذه المواضع التي أمر الله تعالى بالاحتجاب فيها مظنة الفتنة؛ ولهذا قال

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، فقد تحصل الزكاة والطهارة بدون ذلك لكن هذا أزكى.

وإذا كان النظر والبروز قد انتفى فيه الزكاة والطهارة لما يوجد في ذلك من شهوة القلب واللذة بالنظر كان ترك النظر والاحتجاب أولى بالوجوب، ولا زكاة بدون حفظ الفرج من الفاحشة؛ لأن حفظه يتضمن حفظه عن الوطء به في الفروج والأدبار ودون ذلك وعن المباشرة ومس الغير له وكشفه للغير ونظر الغير إليه، فعليه أن يحفظ فرجه عن نظر الغير ومسه.

ولهذا قال ﷺ في حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده لما قال له: يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ فقال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**». قال: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «**إن استطعت ألا يرينَّها أحد فلا يرينَها**». قال: فإذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «**فالله أحق أن يُستحيا منه من الناس**»(١).

وقد «**نهى النبي ﷺ أن تباشر المرأةُ المرأةَ في شعار واحد، وأن يباشر الرجلُ الرجلَ في شعار واحد**»(٢). و«**نهى عن أن ينظر الرجل إلى عورة الرجل، وأن**

---

(١) عن معاوية بن حيدة القشيري رضي الله عنه. أخرجه أبو داود (٤٠١٧). والترمذي (٢٧٩٤). وصححه ابن القيم، وحسنه ابن حجر والألباني والأرناؤوط، وحسنه ابن باز من رواية جدِّ بهز بن حكيم.

(٢) من حديث جابر رضي الله عنه: سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ: «**يَنْهى أنْ يُباشِرَ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في ثَوبٍ واحِدٍ، والمَرأةُ المَرأةَ في ثَوبٍ واحِدٍ**». أخرجه أحمد (١٥١٨٤) واللفظ =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تنظر المرأة إلى عورة المرأة»(١).

وفي الصحيحين عن سهل بن سعد أن رجلًا اطلع من جُحرٍ في باب النبي ﷺ، ومع النبي ﷺ مدرى يحكُّ بها رأسه فقال: «**لو أعلم أنك تنظر إلي لطعنت به في عينك؛ إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»(٢).

وقد ظن طائفة من العلماء أن هذا من باب دفع الصائل؛ لأن الناظر معتدٍ بنظره فيُدفع كما يدفع سائر البغاة، ولو كان الأمر كما قالوا لدفع بالأسهل فالأسهل. ولم يجز قلع عينه ابتداء إذا لم يذهب إلا بذلك، والنصوص تخالف ذلك؛ فإنه أباح أن تخذفه(٣) حتى تفقأ عينه قبل أمره بالانصراف.

وكذلك قوله: «**لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك**»، فجعل نفس

له، ومصنف عبد الرزاق (١١ / ٢٤٣)، وابن أبي شيبة (١٧٨٨٨)، والطبراني في الأوسط (٥٢١٨) وقال شعيب الأرناؤوط: صحيح لغيره.

(١) لفظه: «**لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل، ولا المرأة إلى عورة المرأة، ولا يُفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد، ولا تفضي المرأة إلى المرأة في الثوب الواحد**». رواه مسلم (١/١٨٣) (٣٣٨) (٧٤)، وقال النووي في شرحه لصحيح مسلم (٢/٢٢٦، ٢٢٧): «فهو نهي تحريم إذا لم يكن بينهما حائل، وفيه دليل على تحريم لمس عورة غيره بأي موضع من بدنه كان، وهذا متفق عليه، وهذا مما تعم به البلوى، ويتساهل فيه كثير من الناس باجتماع الناس في الحمّام، فيجب على الحاضر فيه أن يصون بصره ويده وغيرها عن عورة غيره، وأن يصون عورته عن بصر غيره ويد غيره من قيِّم وغيره».

(٢) البخاري (٦٢٤١)، ومسلم (٢١٥٦).

(٣) الخذف: هو رمي الحجر الصغير، فهو أخص من عموم الحذف.

النظر مبيحًا للطعن في العين، ولم يذكر الأمر له بالانصراف. وهذا يدل على أنه من باب المعاقبة له على ذلك حيث جنى هذه الجناية على حرمة صاحب البيت، فله أن يفقأ عينه بالحصى والمدرى.

والنظر إلى العورات حرام داخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، وفي قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، فإن الفواحش وإن كانت ظاهرة في المباشرة بالفرج أو الدبر وما يتبع ذلك من الملامسة والنظر وغير ذلك، وكما في قصة لوط: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]، وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

فالفاحشة أيضًا تتناول كشف العورة وإن لم يكن في ذلك مباشرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا﴾ [الأعراف: ٢٨]، وهذه الفاحشة هي طوافهم بالبيت عراة، وكانوا يقولون: لا نطوف بثياب عصينا الله فيها؛ إلا الحمس فإنهم كانوا يطوفون في ثيابهم، وغيرهم إن حصل له ثياب من الحمس طاف فيها وإلا طاف عريانًا، وإن طاف بثيابه حرمت عليه فألقاها، فكانت تسمى لقاء، وكذلك المرأة. وقد سمى الله ذلك فاحشة.

وقوله في سياق ذلك: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]، يتناول كشف العورة أيضًا وإبداءها، ويؤكد ذلك أن إبداء فعل النكاح باللفظ الصريح يسمى فحشاء وتفحشًا، فكشف الأعضاء والفعل للبصر ككشف ذلك للسمع.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمقصود؛ أن الفاحشة تتناول الفعل القبيح، وتتناول إظهار الفعل وأعضاءه، كما أن ذلك يتناول ما فحش وإن كان بعقد نكاح كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، فأخبر أن هذا النكاح فاحشة. وقد قيل إن هذا من الفواحش الباطنة، فظهر أن الفاحشة تتناول العقود الفاحشة كما تتناول المباشرة بالفاحشة؛ فإن قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾، يتناول العقد والوطء. وفي قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، عموم لأنواع كثيرة من الأقوال والأفعال.

وأمر تعالى بحفظ الفرج مطلقًا بقوله: ﴿وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]، وبقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ [المعارج: ٢٩، ٣٠] الآيات. وقال: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فحفظ الفرج مثل قوله: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ١١٢] وحفظها هو صرفها عما لا يحل.

وأما الأبصار فلا بد من فتحها والنظر بها، وقد يفجأ الإنسان ما ينظر إليه بغير قصد فلا يمكن غضها مطلقًا، ولهذا أمر تعالى عباده بالغض منها كما أمر لقمان ابنه بالغض من صوته.

ويمكن العبد أن يغض صوته مطلقًا في كل حال ولم يؤمر العبد به؛ بل يؤمر برفع الصوت في مواضع إما أمر إيجاب أو استحباب فلهذا قال: ﴿وَٱغْضُضْ مِن

صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩].

فإن الغض في الصوت والبصر جماع ما يدخل إلى القلب ويخرج منه، فبالسمع يدخل القلب وبالصوت يخرج منه، كما جمع العضوين في قوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [البلد: ٨، ٩]، فبالعين والنظر يعرف القلب الأمور، واللسان والصوت يخرجان من عند القلب الأمور، هذا رائد القلب وصاحب خبره وجاسوسه، وهذا ترجمانه»(١).

١٣ ـ استشعار مراقبة الله تعالى وإحاطته وعلمه.

وهذا من بركات الإيمان بأسماء الله وصفاته، وعلى قدر استحضار القلب لهاتيك الصفات الجليلة العظيمة يكون خوفه من ربه وحياؤه واستحضار معيّته.

فالمؤمن حينما يستشعر قرب الله تعالى منه ورؤيته له وسمعه وعلمه بما يخفي وما يعلن وإحاطته التامة به فإن ذلك يثمر إحسان القول والعمل والسمع والبصر، بل والخواطر(٢).

وإذا تدبر المؤمن قول ربه تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [آل عمران: ٢٩]، فإنه يسلّم أمر نفسه الأمارة لشرعة ربه ويسيّرها على صراط ربه المستقيم، فإن نازعته مستغلة ضعف بشريّته وانتقاض عزمه ذكّرها بقول ربه الأعز: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾ [العلق:

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥ / ٣٧٤ - ٣٩٥) باختصار.

(٢) وللمراقبة كتاب مستقل بإذن الله تعالى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

١٤]، بلى وعزة ربِّي بَلَى!

ولما سأل جبريل رسول الهدى صلوات الله عليه وسلامه عن الإحسان قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١)، وهذا في الغاية من استحضار معية الله تعالى واطّلاعه على عبده.

«وخطب عروة بن الزبير إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجبه، ثم لقيه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال: «كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا»(٢).

وقوله ﷺ: «**فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»، قيل: إنه تعليل للأول، فإن العبد إذا أُمر بمراقبة الله تعالى في العبادة واستحضار قربه من عبده حتى كأن العبد يراه فإنه قد يشق ذلك عليه فيستعين على ذلك بإيمانه بأن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته وباطنه وظاهره ولا يخفى عليه شيء من أمره، فإذا تحقق هذا المقام سهل عليه الانتقال إلى المقام الثاني؛ وهو دوام التحقيق بالبصيرة إلى قرب الله من عبده ومعيته حتى كأنه يراه.

وقيل: بل هو إشارة إلى أن من شق عليه أن يعبد الله تعالى كأنه يراه فليعبد الله على أن الله يراه ويطلع عليه فليستحي من نظره إليه.

وقال وهب بن الورد: خف الله على قدر قدرته عليك، واستحي(٣) من

---

(١) مسلم (١/٢٨) (٨).

(٢) فتح الباري لابن رجب (٢ / ٣٣٠).

(٣) حُذفت الياء الثانية للجزم الأمري، فأصلها ياءان من يستحيي، وفي التنزيل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ =

الله على قدر قربه منك. وقال له رجل عظني فقال له: اتق الله أن يكون أهون الناظرين إليك[١].

وقال بعض العارفين من السلف: من عمل لله على المشاهدة فهو عارف[٢]، ومن عمل على مشاهدة الله إياه فهو مخلص. وفيه إشارة إلى ترك المعاصي في السر، وإلى هذا المعنى الإشارة في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: زهّدنا الله وإياكم في الحرام زهد من قدر عليه في الخلوة فعلم أن الله يراه فتركه من خشيته.

وقال الشافعي: أعز الأشياء ثلاثة: الجود من قلَّة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرجى أو يخاف.

وكتب ابن السمَّاك الواعظ إلى أخ له: أما بعد، أوصيك بتقوى الله الذي هو نجيّك في سريرتك، ورقيبك في علانيتك، فاجعل الله من بالك على كل حال في ليلك ونهارك، وخف الله بقدر قربه منك وقدرته عليك، واعلم أنك بعينه ليس تخرج من سلطانه إلى سلطان غيره ولا من ملكه إلى ملك غيره، فليعظم منه حذرك، وليكثر منه وجلك، والسلام.

﴿لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

(١) ورويت كذلك عن وهب بن منبه رحمه الله تعالى.

(٢) أي: عالم بالله تعالى.

وقال بعضهم: ابن آدم، إن كنت حيث ركبت المعصية لم تصفُ لك من عينين ناظرة إليك، فلما خلوت بالله وحده صفت لك معصيته! ولم تستحي منه حياءك من بعض خلقه.

ما أنت إلا أحد رجلين: إن كنت ظننت أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت علمت أنه يراك فلم يمنعك منه ما منعك مِن أضعف خلقه لقد اجترأت.

ودخل بعضهم غيضة ذات شجر فقال: لو خلوتُ ههنا بمعصية من كان يراني؟ فسمع هاتفًا[1] بصوت ملأ الغيضة: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وراود بعضهم أعرابية وقال لها: ما يرانا إلا الكواكب. قالت: أين مكوكبها؟!

ورأى محمد بن المنكدر رجلًا واقفًا مع امرأة يكلمها فقال: إن الله يراكما، سترنا الله وإياكما.

وقال الحارث المحاسبي: المراقبة: علم القلب بقرب الرب.

وسئل الجنيد: بم يُستعان على غضِّ البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الله إليك أسبق إلى ما تنظره.

(١) الهاتف هو الصوت الذي لا يُرى صاحبه، وهم يحيلونه في الأغلب إلى الملائكة أو الجان.

وكان عمر قد بعث معاذًا على عمل، فقدم وليس معه شيء[١] فعاتبته امرأته، فقال: كان معي ضاغط. ـ يعني من يضيِّق عليَّ ويمنعني من أخذ شيء ـ وإنما أراد معاذ ربه عز وجل، فظنت امرأته أن عمر بعث معه رقيبًا، فقامت تشكوه إلى الناس.

ومن صار له هذا المقام حالًا دائمًا أو غالبًا فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه، ومن المحسنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم.

وفي الجملة فتقوى الله في السر هو علامة كمال الإيمان، وله تأثير عظيم في إلقاء الله لصاحبه الثناءَ في قلوب المؤمنين. وعن ابن مسعود: ما أسر عبد سريرة إلا ألبسه الله رداءها علانية إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر[٢].

وقال أبو الدرداء: ليتق أحدكم أن تلعنه قلوب المؤمنين وهو لا يشعر، يخلو بمعاصي الله فيُلقي الله له البغض في قلوب المؤمنين.

وقال سليمان التيمي: إن الرجل ليصيب الذنب في السرّ فيصبح وعليه مذلّته. وقال غيره: إن العبد ليذنب الذنب فيما بينه وبين الله، ثم يجيء إلى إخوانه فيرون أثر ذلك عليه. وهذا من أعظم الأدلة على وجود الإله الحق المُجازي بذرات الأعمال في الدنيا قبل الآخرة، ولا يضيع عنده عمل عامل، ولا ينفع من

---

(١) أي: من المال نظير عمله.

(٢) رواه الطبراني في الكبير» عن جندب مرفوعًا (١ / ١٨٠ / ١)، ولا يصح الرفع. وانظر: ضعيف الجامع (٥٠٠٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قدرته حجاب ولا استتار.

فالسعيد من أصلح ما بينه وبين الله، فإنه من أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الخلق، ومن التمس محامد الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذامًّا له.

وقال أبو سليمان: إن الخاسر من أبدى للناس صالح عمله، وبارز بالقبيح من هو أقرب إليه من حبل الوريد.

ومن أعجب ما روي في هذا: ما روي عن أبي جعفر السائح قال: كان حبيب أبو محمد تاجرًا يكري الدراهم، فمر ذات يوم بصبيان فإذا هم يلعبون، فقال بعضهم لبعض: قد جاء آكل الربا! فنكس رأسه وقال: يا رب أفشيت سري إلى الصبيان. فرجع فجمع ماله كلَّه وقال: يا رب إني أسير وإني قد اشتريت نفسي منك بهذا المال فأعتقني. فلما أصبح تصدّق بالمال كله، وأخذ في العبادة، ثم مر ذات يوم بأولئك الصبيان فلما رأوه قال بعضهم لبعض: اسكتوا فقد جاء حبيب العابد. فبكى وقال: يا رب أنت تذمُّ مرَّة وتحمد مرَّة، وكله من عندك»[1].

ومن أعظم أسباب الثبات على ملة الإسلام عبادة السرّ في الأمر والنهي، في الواجب والمستحب وفي المحرم والمكروه، فعبادة الخلوات من أسباب الثبات على الدين حتى الممات، بإذن رب البريّات سبحانه وبحمده، أما معاصي

(١) جامع العلوم والحكم (١ / ٣٦)، (١٦٠ - ١٦٣) باختصار.

الخلوات فهي دهليز الانتكاسات وسوء الخاتمة عياذًا بالله تعالى ورحمته ولطفه.

١٤ ـ تحديث النفس بفضل العفاف وشرف أهله.

إنّ أفضل ما يأتيه الإنسان المبتلى بالعشق التعفّف، والاصطبار لله تعالى لتحصيل رضوانه بمصابرة العفاف، حتى يغنم العافية التي من أُعطيها فقد أُعطي الخير، وتركِ ركوب المعصية والفاحشة، وألّا يرغب عن مجازاة خالقه له بالنعيم في دار المقامة، وألّا يعصي مولاه المتفضّل عليه، الذي جعله مكانًا وميدانًا وأهلًا لأمره ونهيه، وأرسل إليه أنبياءه ورسله، وجعل كلامه أمانةً لديه، عناية منه به وإحسانًا إليه وهداية له.

وإنّ من هام قلبُه، واشتغل باله، واشتدّ شوقُه، وعظم وَجْدُه، ثم ظفر ببُغيته، فرام هواه أن يغلب عقله، وكادت شهوتُه أن تقهر دينه، فأقام المراقبة والحياء والخشية لنفسه حصنًا، وعلم أنّها النفس الأمارة بالسوء، وذكَّرها بعقاب الله تعالى، واستحيا منه، وتذكّر جلال لقائه، وتفكَّر في شناعة اجترائه على خالقه وهو يراه، وعظيم جرمه بكفر نِعَمِهِ التي بها يريد عصيانه، وحذَّرها من يوم هول المعاد، والوقوف بين يدي الملك العزيز العليم الجليل الشديد العقاب، الذي لا يحتاج إلى بيّنة واستشهاد، فأنطق حينها بالشهادة على الجاني جوارحَه وأركانَهُ المُطلقة في السوء والخطيئة والعصيان، «ونظر بعين ضميره إلى انفراده عن كل مدافع بحضرة علام الغيوب: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [الحجر: ٤٨]، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، يوم: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١].

يوم: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[الكهف: ٤٩]، يوم الطامة الكبرى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٥ – ٤١].

واليوم الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

عندها يقول العاصي: ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾ [الكهف: ٤٩].

فكيف بمن طوي قلبه على أحرّ من جمر الغضا، وطوي كشحه على أحدّ من السيف، وتجرح غصصًا أمرّ من الحنظل، وشرَّف نفسه كرهًا عمّا طمعت فيه وتيقنت ببلوغه وتهيأت له ولم يحل دونها حائل؛ لحريٌّ أن يُسرَّ غدًا يوم البعث، ويكون من المقرّبين في دار الجزاء وعالم الخلود، وأن يأمن روعات القيامة وهول المطلع، وأن يعوِّضه الله من هذه القرحة الأمن يوم الحشر.

ولو لم يكن جزاء ولا عقاب ولا ثواب؛ لوجب علينا إفناء الأعمار، وإتعاب الأبدان، وإجهاد الطاقة، واستنفاد الوسع، واستفراغ بالعقل الذي ابتدأنا بالنعم

قبل استئهالها، وامتنَّ علينا بالعقل الذي به عرفناه، ووهبنا الحواس والعلم والمعرفة ودقائق الصناعات.

وصرف لنا السماوات جارية بمنافعها، ودبّرنا التدبير الذي لو ملكنا خلْقنا لم نهتد إليه، ولا نظرنا لأنفسنا نظره لنا، وفضّلنا على أكثر المخلوقات، وجعلنا مستودع كلامه ومستقرّ دينه، وخلق لنا الجنة دون أن نستحقّها، ثم لم يرض لعباده أن يدخلوها إلا بأعمالهم لتكون واجبةً لهم، قال الله تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأرشدنا إلى سبيلها، وبصَّرنا وجه نيلها، وجعل غاية إحسانه إلينا وامتنانه علينا حقًّا من حقوقنا قبله، ودينًا لازمًا له، وشكَرَنا على ما أعطانا من الطاعة التي رزقنا قُوَاها، وأثابنا بفضله على تفضله. وهذا كرم لا تهتدي إليه العقول، ولا يمكن أن تكتنفه الألباب.

ومن عرف ربه ومقدار عاقبة رضاه وسخطه؛ هانت عنده اللذات الذاهبة والحطام الفاني، فكيف وقد أتى من وعيده ما تقشعر لسماعه الأجساد، وتذوب له النفوس، وأورد علينا من عذابه ما لم ينته إليه أمل؛ فأين المذهب عن طاعة هذا الملك الكريم، وما الرغبة في لذة ذاهبة لا تذهب الندامة عنها، ولا تفنى التباعة منها، ولا يزول الخزي عن راكبها، وإلى كم هذا التمادي وقد أسمعنا المنادي، وكأن قد حدا بنا الحادي إلى دار القرار، فإما إلى جنة وإما إلى النار؟ ألا إنّ التثبّط في هذا المكان لهو الضلال المبين.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قد آن للقلب أن يفيقَ وأنْ ... يزيل ما قد علاه من حُجُبِه
ألهاهُ عمّا عهدت يعجبه ... خيفة يومَ تُبلى السرائرُ به
يا نفسُ جِدِّي وشمّري ودَعِي ... عنكِ اتّباع الهوى على لَغَبِه
وسارعي في النجاة واجتهدي ... ساعيةً في الخلاص من كُرَبِه
مَن قد حباه الإله رحمتَهُ ... موصولة بالمزيد من نشبه
فصار من جهلهِ يصرفها ... فيما نهى الله عنه في كتُبِه
أليسَ هذا أحرَى العباد غدًا ... بالوقع في ويله وفي حرَبِه

والحمد لله كثيرًا طيّبًا مزيدًا، فمواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تُحَدُّ، ولا يُؤدَّى شكرُها، والكلُّ مِنَحه وعطاياه، ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه، وإليه منقلبنا، وكلّ عارية فراجعة إلى معيرها، وله الحمد أولًا وآخرًا وعَوْدًا وبدءًا.

أراكَ إذا حاولتَ دنياكَ ساعيًا ... على أنّها بادٍ إليكَ ازورارُهَا
وفي طاعة الرحمن يُقعِدُكَ الوَنَى ... وتُبدِي أناةً لا يصِحّ اعتذارُهَا
تُحَاذر أحزانًا ستفنى وتنقَضِي ... وتَنسى التي فرضٌ عليك حذارُهَا
تَنَبَّهْ ليومٍ قد أظلّكَ وِرْدهُ ... عصيبٌ يوافي النفسَ فيه احتضارُهَا
تَبَرَّأَ فيه منكَ كُلُّ مُخَالطٍ ... وآنَ مِنَ الآمالِ فيه انهيارُهَا
فَأُودِعْتَ في ظلماء ضَنْكٍ مَقرّهَا ... يلوحُ عليهَا لِلْعِيونِ اغبرارُهَا
تُنادَى فلا تدري المُنَادي مُفردًا ... وقد حُطَّ عن وجهِ الحياةِ خِمَارُهَا
تُنَادَى إلى يومٍ شديدٍ مُفَزّعٍ ... وساعةَ حشرٍ ليس يخفى اشتهارُهَا

إذا حُشِرتْ فيه الوحوشُ وجُمّعتْ … صحائفُنَا وانثالَ فينا انتشارُهَا
وزُيّنتْ الجناتُ فيه وأُزلفتْ … وأُذْكِيَ مِنْ نارِ الجحيمِ استعارُهَا
وكُوّرتْ الشمسُ المنيرةُ بالضُّحَى … وأُسْرِعَ مِنْ زهرِ النجومِ انكدارُهَا
لقدْ جَلَّ أمرٌ كان منه انتظامُهَا … وقد حلَّ أمرٌ كان منه انتثارُهَا
وسُيّرَتْ الأجبالُ والأرضُ بُدِّلَتْ … وقد عُطِّلَتْ مِنْ مالكِيهَا عِشَارُهَا
فإمّا لِدَارٍ ليسَ يَفنى نعيمُهَا … وإمّا لدارٍ لا يُفَكُّ إسَارُهَا
بحضرَةِ جبّارٍ رفيقٍ مُعاقِبٍ … فتُحْصَى المعاصي كُبْرُهَا وصِغَارُهَا
ويندمُ يومَ البعثِ جاني صِغَارَها … وتُهْلِك أهليها هناكَ كِبَارُهَا
سَتُغْبَطُ أجسادٌ وتحيا نفوسُهَا … إذا ما استوى إسرَارُهَا وجِهَارُهَا
إذا حَفَّهُمْ عفوُ الإلهِ وفضلُهُ … وأسكنهم دارًا حَلالًا عَقَارُهَا
هل العِزُّ إلا هِمَّةٌ صَحَّ صونُهَا … إذا صانَّ همّات الرجالِ انكسارُهَا
وهلْ رابحٌ إلا امرؤٌ مُتوكِّلٌ … قنوعٌ غنيُّ النفسِ بادٍ وقارُهَا
عِيَانًا نرى هذا ولكنْ سَكْرَةً … أحاطتْ بنا ما إنْ يُفيقُ خمَارُهَا
تدبّرْ مَنِ البَاني على الأرض سقفَهَا … وفي علمه معمورُهَا وقِفَارُهَا
ومَنْ يُمسِكُ الأجرامَ والأرضَ أمرُهُ … بلا عَمَدٍ يُبنى عليه قرارُهَا
ومَنْ قدَّر التدبيرَ فيها بحكمة … فصحَّ لديها ليلُهَا ونهارُهَا
ومَنْ فتَقَ الأمواهَ في صفْحِ وجهِهَا … فمنها تُغذّى حَبُّها وثمارُهَا
ومَنْ صيَّرَ الألوانَ في نَوْرِ نبتِهَا … فأشرقَ فيها وردُهَا وبهَارُهَا
فمِنْهُنَّ مُخْضَرٌّ يَرُوقُ بَصِيصُهُ … ومنهن ما يغشى اللِّحاظَ احمِرَارُهَا
ومنْ حفَرَ الأنهارَ دون تَكَلُّفٍ … فثارَ من الصُمِّ الصِّلابِ انفجارُهَا

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ومَنْ رتَبَ الشمسَ المُنير ابيضاضها ... غُدُوًّا ويبدو بالعَشِيِّ اصفرارُهَا
ومَنْ خَلَقَ الأفلاكَ فامتدَّ جَرْيُهَا ... واحكمها حتى استقامَ مدارُهَا
ومَنْ إنْ أَلَمَّتْ بالعقولِ رَزِيَّةٌ ... فليس إلى حيٍّ سواهُ افتقارُهَا
تَجِدْ كُلَّ هذا راجعًا نحوَ خالقٍ ... له مُلْكُها منقادةٌ وائتمارُهَا
وأبرزَ مِنْ صُمِّ الحجارةِ ناقةً ... وأسمعهمْ في الحِيْنِ منها حُوَارُهَا
لِيُوقِنَ أقوامٌ وتَكْفُرَ عُصْبَةٌ ... أتاها بأسبابِ الهلاكِ قُدَارُها
وشَقَّ لموسى البحرَ دونَ تكلُّفٍ ... وبانَ من الأمواجِ فيه انحسارُهَا
وسلَّمَ مِنْ نارِ الأتُونِ خَلِيلَهُ ... فلمْ يؤذِهِ إحراقُهَا واحْتِرَارُهَا
ونجَّى من الطّوفانِ نوحًا وقدْ هَدَى ... بهِ أُمَّةً أبدى الفسوقَ شِرارُهَا
وَمَكَّنَ داوودًا بأيْدٍ وابنَهُ ... فتعشيرُهَا مُلقًى لهُ وبِذَارُهَا
وذلَّلَ جبَّارَ البلادِ لأمرِهِ ... وعلَّم من طيرِ السماء حِوارُهَا
وفضَّلَ بالقرآنِ أُمَّةَ أحمدٍ ... ومكَّنَ في أقصى البلادِ مُغَارُهَا
وشقَّ له بدرَ السماءِ وَخَصَّهُ ... بآياتِ حقٍّ لا يُخَلُّ مُعَارُهَا
فَمَا بَالُنا لا نتركِ الجهلَ وَيْحَنَا ... لنسلمَ مِنْ نارٍ تَرَامَى شَرَارُهَا»(١)

١٥ ـ حسم المادة بعدم اتباع خطوات الشيطان.

لقد حذَّر الله تعالى في القرآن من خطوات الشيطان في أربعة مواضع فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ

(١) رسائل ابن حزم (١ / ٢٦٩ - ٣١٠) بتصرف واختصار.

ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال جل وعلا: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ١٤٨]. ولقد أنصفك وأشفق عليك ونصحك من بيّن لك حقيقة عدوك وقدر عداوته.

فاعلم أنّ الشيطان يتدرّجُ بالإنسان في معصية خالقه تعالى، فينقله من الخطرة والفكرة إلى النظرة والسماع، ثم يتبعه اللمس والقبلة والضم، ثم الفاحشة الكبرى، ثم العادة الدائمة حتى يرحل بفجوره وإباقه ووزره للقاء سيده ومالكه وإلهه وربِّه!

وتأمل واعتبر بقصة برصيصا الذي كان عابدًا فافتُتن بسبب اتباعه خطوات عدوّه الشيطان ـ وهي عكس خبر جريج، فإن جريجًا عُصم وذلك فتن عياذًا بالله تعالى ـ «فعن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِي ٱلنَّارِ خَٰلِدَيۡنِ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦، ١٧].

قال: وكانت امرأة ترعى الغنم، وكان لها اخوة أربعة، وكانت تأوي بالليل

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إلى صومعة راهب. قال: فنزل الراهب ففجر بها فحملت، فأتاه الشيطان فقال له: اقتلها ثم ادفنها فإنك رجل تُصَدّق ويُسمع قولك. فقتلها ثم دفنها. قال: فأتى الشيطان أخوتها في المنام فقال لهم: إن الراهب صاحب الصومعة فجر بأختكم، فلما أحبلها قتلها ثم دفنها في مكان كذا وكذا.

فلما أصبحوا قال رجل منهم: والله لقد رأيت البارحة رؤيا ما أدري أقصها عليكم أم أترك قالوا: لا بل قصها علينا. قال: فقصها فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك فقال الآخر: وأنا والله لقد رأيت ذلك. قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيء! فانطلقوا فاستعدوا(١) ملكهم على ذلك الراهب فأتوه فأنزلوه.

ثم انطلقوا به فأتاه الشيطان، فقال: إني أنا أوقعتك في هذا، ولن ينجيك منه غيري فاسجد لي سجدة واحدة وأنجيك مما أوقعتك فيه. قال: فسجد له. فلما أتوا به ملكهم تبرأ منه وأخذ فقتل.

وهكذا روي عن ابن عباس وطاوس ومقاتل ابن حيان نحو ذلك.

وقد روي عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسياق آخر. فقال: إنّ راهبًا تعبَّد ستين سنة، وإنّ الشيطان أراده فأعياه، فعمد إلى امرأة(٢) فأجنَّها(٣) ولها أخوة فقال لإخوتها: عليكم بهذا القس فيداويها. قال: فجاؤوا

(١) استعدوا ملكهم: أي استعانوا به فأنصفهم منه وصار عدوًّا لبرصيصا.
(٢) فالنساء حبائل إبليس إلا الصالحات فعدوَّاته وقاهراته.
(٣) أي: أصابها بالجنون أو تلبس الجان.

بها إليه فداواها وكانت عنده، فبينما هو يومًا عندها[١] إذ أعجبته فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها.

فجاء إخوتها فقال الشيطان للراهب: أنا صاحبك، إنك أعييتني، أنا صنعت هذا بك فأطعني أنجك مما صنعت بك، اسجد لي سجدة، فسجد له قال: إني برئ منك إني أخاف الله رب العالمين.

فذلك قوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦]»[٢].

وقيل: إنه طلب منه السجود له، فقال: إني مقيد إلى العمود لا أستطيع، فقال الشيطان: أومئ إليَّ بالسجود، فأومأ إليه فأشرك مع الله، فطار عنه الشيطان وتركه لمّا تمكّن منه وأدرك مقصوده الذي هو دينه. فقُتل كافرًا مشركًا بعد استقامته وصلاحه، عياذًا بالله من مكره واستدراجه.

وروى الذهبي رحمه الله: أنه «كان رجل بمصر ملتزم المسجد للآذان والصلاة وعليه بهاء العبادة وأنوار الطاعة. فرقي يومًا المنارة على عادته للآذان، وكان تحت المنارة دار لنصراني ذمي، فاطَّلع فيها[٣] فرأى ابنة صاحب الدار. وكانت جميلة. فافتتن بها وترك الآذان ونزل إليها فقالت له: ما شأنك وما تريد؟

---

(١) وفيه خطر الخلوة بالأجنبية مهما كان حالها.

(٢) البداية والنهاية (٢ / ١٦٢، ١٦٣) مختصرًا.

(٣) ويا رُبَّ معصية جرت لأكبر منها، فلو أنه حسم المادة من أولها ولم يطاوع نفسه حينما زينت له النظر الحرام!

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال: أنت أريد، قالت: لا أجيبك إلى ريبة. قال لها: أتزوجك. قالت له: أنت مسلم وأبي لا يزوجني بك، قال: أتنصَّر!(١) قالت له: إن فعلت أفعل. فتنصّر ليتزوجها.

وأقام معهم في الدار، فلما كان في أثناء ذلك اليوم رقى إلى سطح كان في الدار فسقط فمات، فلا هو فاز بدينه ولا هو تمتع بها. نعوذ بالله من مكره وسوء العاقبة وسوء الخاتمة»(٢).

(١) عياذًا بوجه الله تعالى من سوء العاقبة وشر المنقلب. ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[الأعراف: ٩٩].

(٢) الكبائر، للذهبي (١ / ٢٢٧) مختصرًا.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

من أخبار أهل العفاف

عفّة النبي ﷺ

سيد العفيفين بإطلاق هو رسول الهدى والتقى والطِّيبِ والفضيلة والعفاف نبيُّنا محمدٌ ﷺ. فلقد كان النبي ﷺ في أعلى درجات العفة في كل مجالاتها الجسدية والنفسية والخُلُقيّة والمالية، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أخذ الحسن بن علي تمرة من تمر الصدقة فجعلها في فيه فقال رسول الله ﷺ: «**كخ كخ!**(١) **ارْمِ بها، أما علمتَ أنا لا نأكل الصدقة**»(٢).

وعنه أيضًا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنّي لأنقلب إلى أهلي؛ فأجد التمرة ساقطة على فراشي، ثم أرفعها لآكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها**»(٣).

وقد عرض عليه ربه ملك الدنيا والخلد فيها مع النبوة فآثر الرسالة والفقر فيجوع ويصبر ويشبع ويشكر ويتعبد ربه في كل أحيانه قد جرى العفاف منه مجرى الدم وخُلط بلحمه وعصبه حتى كان عفافًا يمشي على قدمين ﷺ.

ولمَّا عرضت عليه قريش أجمل نسائها وأنفس أموالها وأن يملِّكوه عليهم نظير كفه عن آلهتهم أبى عفافًا عن أكل الدنيا بالدين، وصيانًا للملة من أدنى

---

(١) كخ: زجر للصبي وردع، وتقال عند التقذُّر كذلك. «النهاية» لابن الأثير (٤/٢٧٣)، ولا زالت عند العامة فيقولون: كخة.

(٢) البخاري (١٤٩١)، ومسلم (١٠٦٨).

(٣) البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

ثلمه، صلوت ربي عليه وسلامه وبركاته.

عفة يوسف عليه السلام

لقد خلَّد الله قصة عفافه النادر في سورة باسمه تتلى، فقد كان شابًّا أعزبًا جميلًا مملوكًا مدعوًّا للسوء من سيدته المتهيئة له بكل ما يريده الرجال من النساء، لكن الله عصمه بتقواه وصلاحه واستقامته وإخلاصه.

لقد أخبر الله سبحانه عن عشق امرأة العزيز ليوسف، وما راودته وكادته وألحَّت في فتنته، وأخبر عن الحال التي صار إليها يوسف بصبره وعفته وتقواه، مع أن الذي ابتلي به أمر لا يصبر عليه إلا من صبّره الله، فإن مواقعة الفعل تكون بحسب قوة الداعي وزوال المانع، وكان الداعي هاهنا في غاية القوة، لكن المانع كان أقوى وأرفع وأسمى، إنه العفاف النبوي! «وقد كانت قوّة داعي الفاحشة من وجوه:

أحدها: ما ركَّبه الله سبحانه في طبع الرجل من ميله إلى المرأة.

الثاني: أنَّ يوسف عليه السلام كان شابًّا، وشهوة الشباب وحدَّته أقوى.

الثالث: أنَّه كان عَزَبًا، ليس له زوجة ولا سُرِّيَة تكسر شدّة الشّهوة.

الرابع: أنَّه كان في بلاد غربة، يتأتَّى للغريب فيها من قضاء الوطر ما لا يتأتى له في وطنه وبين أهله ومعارفه.

الخامس: أنَّ المرأة كانت ذات منصب وجمال، بحيث إنَّ كلَّ واحد من هذين الأمرين يدعو إلى مواقعتها.

السادس: أنّها غير ممتنعة ولا آبية.

السابع: أنها طلبت وأرادت وبذلت الجهد، فكفته مؤنة الطلب، وذلَّ الرغبة إليها، بل كانت هي الراغبة الذليلة، وهو العزيز المرغوب إليه.

الثامن: أنَّه في دارها، وتحت سلطانها وقهرها، بحيث يخشى إن لم يطاوعها من أذاها له، فاجتمع داعي الرغبة والرهبة.

التاسع: أنَّه لا يخشى أن تنمَّ عليه هي ولا أحد من جهتها، فإنها هي الطالبة الراغبة، وقد غلَّقت الأبواب، وغيَّبت الرقباء.

العاشر: أنَّه كان في الظاهر مملوكًا لها في الدار، بحيث يدخل ويخرج ويحضر معها، ولا ينكر عليه، وكان الأنس سابقًا على الطلب، وهو من أقوى الدواعي.

الحادي عشر: أنها استعانت عليه بأئمة المكر والاحتيال، فأرته إياهنَّ، وشكت حالها إليهن؛ لتستعين بهنَّ عليه.

الثاني عشر: أنها توعّدته بالسجن والصغار، وهذا نوع إكراه.

الثالث عشر: أنَّ الزوج لم يظهر منه الغيرة والنخوة ما يفرّق به بينهما، ويبعد كلًّا منهما عن صاحبه، بل كان غاية ما قابلها به أن قال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَا﴾ وللمرأة: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٢٩]، وشدة الغيرة للرجل من أقوى الموانع، وهنا لم يظهر منه غيرة.

ومع هذه الدواعي كلها آثر مرضاة الله وخوفه، وحمله حبه لله على أن اختار السجن على الزنا: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ﴾ [يوسف:

www.alukah.net
شبكة الألوكة

٣٣]، وعلم أنه لا يطيق صرف ذلك عن نفسه، وأنَّ ربه تعالى إن لم يعصمه ويصرف عنه كيدهن؛ صبا إليهنَّ بطبعه، وكان من الجاهلين، وهذا من كمال معرفته بربه وبنفسه»(١).

فنبي الله يوسف عليه السلام؛ قد استعصم بربه حين حاصرته دواعي الفتنة، ولم يستسلم أمام التهديدات والإغراءات مالية كانت أو جسدية أو لسانية أو نفسانية أو غير ذلك، بل ردَّها ابتداء ولم يسمح بمقدمات البلاء أن تستولي عليه، فلا بد للعفيف من اجتناب مقدمات الفاحشة كالنظر والكلام وغيرهما، بل وحتى مدافعة الخواطر القبيحة قدر طاقته حتى لا تنتقل لتكون فكرة ثم شهوة ثم انحدارًا للحرام عبر خطوات الشيطان.

«وفي قول يوسف: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] عبرتان:

إحداهما: اختيار السجن والبلاء على الذنوب والمعاصي.

والثانية: طلب سؤال الله ودعائه أن يثبت القلب على دينه ويصرفه إلى طاعته، وإلا فإذا لم يثبت القلب صبا إلى الآمرين بالذنوب وصار من الجاهلين.

ففي هذا توكل على الله واستعانة به أن يثبت القلب على الإيمان والطاعة، وفيه صبر على المحنة والبلاء والأذى الحاصل إذا ثبت على الإيمان والطاعة»(٢).

---

(١) الجواب الكافي (٢٠٨) بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/ ١٣٠).

لقد كانت حقًّا قصة تهدي أهل العفاف من أن تتخطّفهم سباع الشهوات وضباع الغفلات: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

عفاف سارة زوج إبراهيم عليه السلام

العفيفة الشريفة، التي أحصنت فرجها وأطاعت ربها فحفظها الله تعالى من كيد الملك الفاجر، فالله لا يضيع أهله ولا يخيب من دعاه ورجاه.

والله تعالى حافظٌ أهل العفاف فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي ﷺ: «**هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة، فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك - أو جبار من الجبابرة - فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هي من أحسن النساء. فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التي معك؟ قال: أختي. ثم رجع إليها فقال: لا تكذبي حديثي، فإني أخبرتهم أنك أختي، والله إن على الأرض من مؤمن غيري وغيرك.**

فأرسل بها إليه فقام إليها، فقامت تتوضأ وتصلي فقالت: اللّهم إن كنتُ آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ الكافر. فغطَّ[1] **حتى ركض برجله.**

قالت: اللّهم إن يمت يقال هي قتلته. فأرسل ثم قام إليها فقامت توضأ

---

(١) أي: خُنِق بأمر الله تعالى.

وتصلي[١] وتقول: **اللّٰهم إن كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليَّ هذا الكافر، فغطّ حتى رَكَضَ برجله**». قال عبد الرحمن: قال أبو سلمة: قال أبو هريرة: فقالت: «**اللّٰهم إن يمت فيقال هي قتلته. فأرسل في الثانية أو في الثالثة فقال: والله ما أرسلتم إليَّ إلا شيطانًا، أرجعوها إلى إبراهيم، وأعطوها هاجر، فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام، فقالت: أشعرتَ أنَّ الله كبت الكافر وأخدم وليدة**[٢]»[٣].

عفاف الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ

وهم المثل الأعلى للعفاف بعد الأنبياء، فلله صحابة رسول الله ﷺ في حرصهم على العفاف وخوفهم من ضده، فعن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «ردَّ رسول الله ﷺ على عثمان بن مظعون التَّبتُّل[٤]، ولو أذن له لاختصينا»[٥]. والمعنى: أن الرسول ﷺ لو أذن في ذلك الانقطاع عن النساء لاختصينا لدفع الشهوة وحفظ الفرج وضمان العفاف.

وتأمل سيرتهم في عفافهم عن الأموال والرئاسات رضوان الله عليهم.

---

(١) وفيه فضيلة الدعاء حال الصلاة، وأنه أدعى للإجابة، لأنها دخول مقدس على الملك الكريم سبحانه.

(٢) الوليدة: هي الأمة الصغيرة التي لم تبلغ.

(٣) البخاري الفتح (٤/ ٢٢١٧) واللفظ له، ولمسلم (٢٣٧١) نحوه.

(٤) التّبتّل: الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعًا لعبادة الله تعالى.

(٥) البخاري (٥٠٧٣)، مسلم (١٤٠٢).

عفة حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

عن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «**يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس، لم يبارك له فيه، كالذي يأكل، ولا يشبع اليد العليا خير من اليد السفلى**».

قال حكيم: فقلت: يا رسول الله والذي بعثك بالحق لا أَرْزَأُ[١] أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقَّه من هذا الفيء فيأبى أن يأخذه.

فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله ﷺ حتى توفي»[٢].

عفة عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حادثة تبين لنا عفة وشهامة عثمان بن طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولنترك المجال لصاحبة الموقف أُمِّ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تروي لنا القصة فتقول: «... وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة، قالت: ففرَّق بيني وبين زوجي وبين ابني. قالت: فكنت

---

(١) أي: لا أنقص.

(٢) البخاري (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أخرج كلَّ غداة فأجلس بالأبطح[١] فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريبًا منها، حتى مرَّ بي رجل من بني عمي أحد بني المغيرة، فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، فرَّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها، قالت: فقالوا: الحقي بزوجك إن شئت.

قالت: وردَّ بنو عبد الأسد إليَّ عند ذلك ابني، قالت: فارتحلتُ بعيري، ثم أخذت ابني فوضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، قالت: وما معي أحد من خلق الله، قالت: قلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار، فقال: أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قلت: لا والله إلا الله وابني هذا، قال: والله ما لك من مترك.

فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي به، فوالله ما صحبتُ رجلًا من العرب قطّ أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلنا استأخر ببعيري فحطَّ عنه، ثم قيَّده في الشجرة، ثم تنحَّى إلى شجرة فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدّمه فرحله، ثم استأخر عني، فقال: اركبي، فإذا ركبت فاستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاد بي حتى ينزل بي.

فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلًا ـ فادخليها

(١) الأبطح: مسيل وادي مكة. «النهاية (١/ ١٣٤)».

على بركة الله، ثم انصرف راجعًا إلى مكة، قال: وكانت تقول: ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب أبو سلمة، وما رأيت صاحبًا قطّ كان أكرم من عثمان بن طلحة»(١).

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٤٦٩). وهو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة القرشيِّ العبدريِّ، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبي طلحة. وفي بني طلحة سدانة الكعبة، وقد أخذ النّبيّ ﷺ من عثمان بن طلحة يوم الفتح المفتاح للكعبة، وكان عند أمه محفوظًا، وقد أبتْ أن تسلّمه إيّاه، فقال عثمان: والله لتعطينّه، أو ليخرجنّ هذا السيف من صُلبي، فأعطته إياه، فجاء به إلى النّبيّ ﷺ، فدفعه إليه، ففتح الباب. رواه البخاري (١٥٩٨)، ومسلم (١٣٢٩). وروى عبد الرزاق، والطبراني أنها جعلت تقول: إن أخذه منكم لا يعطيكموه أبدًا. قلت: ولكنه رسول الله ﷺ خير مظنونٍ فيه. فقد ردّ النّبيُّ ﷺ المفتاح إلى عثمان بن طلحة، وليس ذلك عليه بلازم، لكنها مكارم الأخلاق. وروي أنه قال: **«خذوها** ـ أي: سدانة الكعبة ـ **خالدةً تالدةً، لا ينزعها منكم إلّا ظالم»**. رواه الطبراني في الكبير ١١/ ١٢٠ (١١٢٣٤)، بإسناده ضعيف، لضعف عبد الله بن المؤمل، وذكر الحافظ في «الفتح» (٨/ ١٩) شاهدًا له من مرسل عبد الرحمن بن سابط.

وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالى في الاستيعاب في معرفة الأصحاب ٣/١٠٣٤: «وهاجر عثمان بن طلحَة إلى رسول اللَّهِ ﷺ، وكانت هجرته في هدنة الحديبية مع خالد بن الوليد، فلقيا عَمْرو بن العَاص مقبلًا من عند النجاشي يريد الهجرة، فاصطحبوا جميعًا، حتَّى قدموا على رسول اللَّهِ ﷺ بالمدينة، فقال رسول اللَّهِ ﷺ حين رآهم: **«رمتكم مكة بأفلاذ كبدها»** ـ يَقُول: إنّهم وجوهُ أهلِ مكة ـ فأسلَموا، ثُمَّ شهد عثمان بن طلحَة فتح مكة، فدفع رسول اللَّهِ ﷺ مفاتيح الكعبة إليهِ وإلى شيبة =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عفة سالم بن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ

قال ابن عيينة: «دخل هشام الكعبة، فإذا هو بسالم بن عبد الله، فقال: سلني حاجة. قال: إنّي أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره. فلما خرجا، قال: الآن فسلني حاجة. فقال له سالم: من حوائج الدنيا، أم من حوائج الآخرة؟ فقال: من حوائج الدنيا. قال: والله ما سألت الدنيا من يملكها، فكيف أسألها من لا يملكها؟»(١).

عفة الربيع بن خُثيم رحمه الله تعالى

عن سعدان قال: «أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خُثيم فلعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم، فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيَّبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة، فقال لها الربيع: كيف بك لو قد نزلت الحُمّى بجسمك فغيَّرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟(٢)، أم كيف بك

بن عثمان بن أبي طلحة، وقال: «**خُذاها خالدةً تالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالمٌ**». ثم نزل عثمان بن طلحَة المدينة، فأقام بها إلى وفاة رسول الله ﷺ، ثمّ انتقل إلى مكة فسكنها حتى مات بها في أول خلافة معاوية، سنة اثنتين وأربعين، وقيل: إنّه قتل يوم أجنادين». رضي الله عنه.

(١) المجالسة للدينوري (١/٣٤٨).

(٢) الوتين: عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه.

لو قد ساءلك منكر ونكير؟ فصرخت صرخة فسقطت مغشيًّا عليها. فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق»[١].

عفة الأشرف، صاحب دمشق

قال سبط الجوزي: «كان الأشرف يحضر مجالسي بحرَّان، وبخلاط، ودمشق، وكان ملكًا عفيفًا، قال لي: ما مددت عيني إلى حريم أحد، ولا ذكر ولا أنثى، جاءتني عجوز من عند بنت صاحب خلاط ـ شاه أرمن ـ بأنَّ الحاجب عليًّا أخذ لها ضيعة، فكتبت بإطلاقها. فقالت العجوز: تريد أن تحضر بين يديك. فقلت: باسم الله، فجاءت بها، فلم أر أحسن من قوامها، ولا أحسن من شكلها، فَخَدَمَت.

فقمت لها، وقلت: أنت في هذا البلد وأنا لا أدري؟ فسفرت عن وجه أضاءت منه الغرفة، فقلت: لا، استتري. فقالت: مات أبي، واستولى على المدينة بكتمر، ثم أخذ الحاجب قريتي، وبقيت أعيش من عمل النقش وفي دار بالكراء!

فبكيت لها، وأمرت لها بدار وقماش. فقالت العجوز: يا خوند، ألا تحظى الليلة بك؟ فوقع في قلبي تغير الزمان وأنَّ خلاط يملكها غيري، وتحتاج بنتي أن تقعد هذه القعدة، فقلت: معاذ الله، ما هذا من شيمتي. فقامت الشابة باكية

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزي (٣/١٩١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

تقول: صان الله عواقبك[١]»[٢][٣].

وتأمل عفافه عن هذه الفتاة سليلة الأمراء الأرمن بجمالها وإغرائها وإقبالها عليه. اللّهم نسألك العفو والعافية فعن معاذ بن رفاعة قال: قام أبو بكر الصديق على المنبر، ثم بكى فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر ثم بكى فقال: «**اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحدًا لم يُعط بعد اليقين خيرًا من العافية**»[٤].

عفة جريج العابد

نموذج آخر في العفة عما حرم الله، وهو جريج العابد؛ تتعرض له بغيٌّ من بغايا بني إسرائيل، فيعفُّ نفسه ولا يلتفت إليها، فتحاول أن تنتقم منه لامتناعه، لكن الله معه، زمن كان الله معه فلا يخشَ الضيعة والقلّة والهزيمة والفاقة والشرّ.

والله سبحانه لا يخيِّب أهل العفاف حينما يدعونه ولا يكلهم إلى ضعفهم حين يحتاجونه فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي الله ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلًا عابدًا. فاتخذ صومعة[٥]، فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلي فقالت: يا جريج. فقال: يا رب،**

---

(١) أي: حفظ أهلك، وحفظك فيما تستقبل من زمانك.

(٢) الترمذي (٣٥٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣ / ١٨٠).

(٣) سير الأعلام» للذهبي (١٢٦/٤٢).

(٤) وانظر: موسوعة الأخلاق. العفة.

(٥) الصومعة: هي منارة الراهب ومُتعبَّدُه. فتح الباري (١/ ١٤٥).

أمي وصلاتي[١]، فأقبل على صلاته، فانصرفت!

فلما كان من الغد، أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت. فلما كان من الغد، أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج. فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللّهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات![٢].

فتذاكر بنو إسرائيل جريجًا وعبادته، وكانت امرأة بغيٌّ يُتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفتننه لكم. قال: فتعرضت له فلم يلتفت إليها، فأتت راعيًا كان يأوي إلى صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت. فلما ولدت، قالت: هو من جريج، فأتوه فاستنزلوه وهدموا صومعته وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البَغِيِّ[٣] فولدت منك.

فقال: أين الصبي؟ فجاءوا به، فقال: دعوني حتى أصلي فصلى[٤]، فلما

---

(١) وكان عليه أن يوجز ما تبقى من صلاته النافلة ويقبل مسرعًا على أمه.

(٢) المومسات: الزوانى والمجاهرات بالزنا.

(٣) البغي: الفاجرة الزانية.

(٤) ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢] وفيه مشروعية الصلاة عند اشتداد الكرب، فقد «كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة». رواه أحمد، وأبو داود، وحسنه الألباني في صحيح الجامع (٤٧٠٣) ومعنى حزبه: أي نزل به أمر مهم أو أصابه غم. وكان يقول: «**يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها**». رواه أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

=

www.alukah.net
شبكة الألوكة

انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه، وقال: يا غلام! من أبوك؟ قال: فلان الراعي!

قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا. أعيدوها من طين كما كانت(١)، ففعلوا.

وبينا صبي يرضع من أمه، فمر رجل راكب على دابة فارهة وشارة حسنة(٢) فقالت أمه: اللّهم! اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه فنظر إليه. فقال: اللّهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه فجعل يرتضع، قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ وهو يحكي ارتضاعه بإصبعه السبابة(٣) في فمه فجعل

والله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وتأمل وصف الله للمؤمنين باستثنائهم من الهلوعين لدوامهم على قرع بابه بصلاتهم: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾ [المعارج: ١٩ -٢٣].

أمّا ما تسمى بصلاة الحاجة فلم تروَ إلا من طرق لا تثبت، والعبادات مبناها على التوقيف، فعليه: ليس في الشرع تخصيص صلاة معينة بصلاة الحاجة، ولكن يصلي المؤمن صلاته، ويلح على الله تعالى فيها بدعائه خاصة في سجوده وقبل سلامه، وبالله التوفيق.

(١) وهذا من تواضعه وصدقه وشكره لربه تعالى.

(٢) الفارهة: الحادة النشيطة، والشارة: الهيئة واللباس.

(٣) وفيه تسمية هذا الأصبع بالسبابة، خلافًا لمن منع منها وألزم بتسميتها السبّاحة. وهذا من التكلف والتشديد.

يمصها.

قال: ومروا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللّٰهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللّٰهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعا الحديث. فقالت: حَلْقَى![1] مَرَّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللّٰهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللّٰهم لا تجعلني مثله، ومروا بهذه الأمة وهم يضربونها ويقولون: زنيت، سرقت، فقلت: اللّٰهم لا تجعل ابني مثلها، فقلت: اللّٰهم اجعلني مثلها!

قال: إن ذاك الرجل كان جبارًا، فقلت: اللّٰهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها: زنيت ولم تزن، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللّٰهم اجعلني مثلها[2]»[3].

وأكرم بعلم الله تعالى لها غناء عن علم غيره، وكفايته عن كفاية خلقه، وحفظه عن حفظ غيره، ووعده عن وعدِ غيرِه تبارك وتعالى. وهذا من ابتلاء الله تعالى للصالحين والصالحات من عباده وإمائه، وتأمل قصة الإفك وما فيها من أهوال نفسانية أليمة حتى تعلم أن الطعن الكاذب في عرض المؤمن الشريف

---

(١) حلقى، عقرى، ويل أمه، قاتله الله، ثكلتك أمك... كل هذه وأشباهها عبارات تطلقها العرب تعجُّبًا أو حضًّا أو غيره ولا تريد ظاهرها المتبادر.

(٢) أي: في العفاف والتوكل والصبر.

(٣) البخاري، «الفتح (٦/ ٣٤٣٦)، ومسلم (٢٥٥٠) واللفظ له.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يرفعه ولا يخفضه(١).

صاحبي العقار

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشترى رجل من رجل عقارًا(٢) له، فوجد الرجل الذي اشترى العقار في عقاره جرّة فيها ذهب فقال له الذي اشترى العقار: خذ ذهبك مني إنما اشتريت منك الأرض ولم ابتع منك الذهب. وقال الذي له الأرض: إنما بعتك الأرض وما فيها.**

فتحاكما إلى رجل فقال الذي تحاكما إليه: ألكما ولد؟ قال أحدهما: لي غلام، وقال الآخر: لي جارية. قال: أنكحوا الغلام الجارية، وأنفقوا على أنفسهما منه وتصدقا»(٣)(٤).

خالد المسكي

ويذكرون عنه أنه كان بزَّازًا يبيع القماش، فهويته امرأة للفاحشة فخافت رفضه لظهور صلاحه واستقامته، فاحتالت عليه فأرسلت جاريتها تقول: أن سيدتي تريد كذا وكذا من بضاعتك فاجلبها إليها لتختار ما تريد لأنها لا تخرج للأسواق!

---

(١) وانظر كتاب: «حديث الإفك عبرات وعبر» للمؤلف.

(٢) العقار: هو الأرض وما يتصل بها من بنيان أو زروع ونحوها.

(٣) وهذا من فقهه وحكمته، فلم يخرج العقار من ملكيهما، فذريتهما من كسبهما، وأكرِم بذريةٍ من هذين العظيمين من عظماء العفاف.

(٤) البخاري (١٦٣٠)، ومسلم (١٧٢١).

فصدقها وذهب إليها ببضاعته، فلما دخل البيت فرَدَ القماش لتراه السيدة فخرجت عليه في أجمل حلة وأبهى هيئة وأشد فتنة!

فتذكر خالدٌ لقاء ربه ورؤيته له، فقدَّم الحظ الباقي النفيس على العاجل الفاني الخسيس فاستعصم بعفافه، وذكَّرها الله تعالى وسطوته وشديد عقابه، لكنها أبت إلا الفاحشة أو لتفضحنَّه ولتكذبن عليه بين الناس.

فلما أعيته الحيل قال: إذن فدليني على بيت الخلاء عندكم حتى أتهيأ لك، فدلته عليه فدخله ولطخ جسده الطاهر بقذر الخلاء، ثم خرج إليها فتأففت وتقذّرت منه وطردته.

ثم إنه ذهب لبيته واغتسل وتطهر وتنظف وعاد لعمله وحاله وعبادته، لا يعلم عن قصته أحد من الناس سوى المرأة وجاريتها. ولكن أظهر الله زكاءه وطهره وعفافه، فبعد أيام من خروجه من عندها فاح من بدنه ريح مسك يضوع في الأرجاء التي يمرُّ بها، بل وكان الناس يعرفون أن خالدًا قد مرَّ من ذلك الشارع لبقاء ريح الطيب فيه، حتى لقَّبوه بخالد المسكي.

ويقال: إنه قد عاش بذلك الريح الطيب في بدنه حتى وفاته رحمه الله، ثم بقي زمانًا يفوح من قبره الذي امتلأ عفافًا وطهرًا.

صاحب عمر رضي الله عنه

في عهد أمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان هناك شاب ناسك متعبّد جميل الهيئة والصورة، فراودته امرأة عن نفسه فتعفف عنها وزجرها ونهاها عن

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنكر.

فذهبت تشكو حالها لعجوز سوء فاحتالت عليه، إذ جلست في طريق ذهابه للمسجد ومعها متاع ثقيل، فلما مر بها هتفت به: يا بني، احمل عني هذا الحمل لبيتي جزاك الله خيرًا! فحمله لها حتى إذا دخل بيتها أغلقت الباب ونادت الفتاة التي أرادته وهي في كامل زينتها قد استعدّت له وتهيأت لإغوائه.

فتذكَّر الشاب اطلاع الله تعالى عليه فاستحيا أن يراه ربه على معصية، وأي معصية؟! إنها الزنا الذي تلا الشرك والقتل في قبحه وشناعته لدى القلوب الحية العليمة بربها وشرعه، وتذكَّر الدار الآخرة وذكّرهما بالله تعالى والدار الآخرة وهوان الدنيا وقبح الجناية، فأبتا عليه إما أن يفعل الفاحشة أو تصيحا عليه وتتهمانه بالسوء والفحشاء، فقال بكل ثقة بربه العلي الرقيب: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣][(١)].

فلما أيستا من استجابته صاحتا عليه فأتى الناس فطرحوه أرضًا وضربوه تبريحًا، ثم قيدوه وأتوا به إلى الخليفة عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلما رآه امتقع وجهه وقال: اللّهم لا تخيّب ظني فيه[(٢)]!

ثم أنه سأله واستفهمه فأخبره الفتى بواقع الحال كما جرى، فاستدعى عمر عجوز الفتنة وهدّدها بدِرّته[(٣)] فاعترفت وباحت بسرّها، فهتف عمر: الحمد

(١) فاهتف بهذا الشعار العاصف بكل شهوة والمبدد لكل مخافة.

(٢) لِمَا علم من صلاحه واستقامته.

(٣) الدِّرَّة: عصا يضرب بها عمر المخالفين.

لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ كيوسف عليه السلام. أي في تعففه عن الفاحشة بعد مراودة المرأة له وتهديده ووعيده(١).

الذي لم تأكله النار

وذلك أنّ حريقًا شب في دار فأحرقت الناس والمتاع فخرج منها رجل لم تؤذه النار، فسأله الناس عن سرِّه مع الله تعالى إذ حفظه في الهلكة فأبى عليهم، حتى إذا ألحُّوا عليه أخبرهم خبره، وهو أنه قد هوي امرأة جميلة ذهبت بلبِّه فراودها بالسوء فأبت وامتنعت.

ثم إن الحاجة أدركتها فوافقته، حتى إذا خلا بها في حجرة مغلقة قالت: أي فلان، أغلق كل النوافذ، فقال: كلها مغلقة. قالت: أغلق كل الأبواب، قال: كلها مغلقة. فقالت: وأين الباب الذي بيننا وبين الله عز وجل؟!

قال: فعلتني قشعريرة الحياء من الله تعالى والخوف منه، فقمت عنها تاركًا المال لها. فدعت ربها وأنا منصرف عنها: اللّهم حرِّمه على نار الدنيا والآخرة. فها هي نار الدنيا لم تطعم جسدي، فأسأل الله ان يستجيب النصف الثاني من دعوتها.

الفتى الأندلسي

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله: «حدَّث هارون بن موسى الطبيب قال:

---

(١) القصتان الآنفتان قرأتهما في صباي فرويتهما من الذاكرة، ولا أتذكَّر مرجعهما، ولم أجده.

رأيت شابًّا حسن الوجه من أهل قرطبة قد تعبَّد ورفض الدنيا، وكان له أخ في الله قد سقطت بينهما مؤنة التحفظ، فزاره ذات ليلة وعزم على المبيت عنده، فعرضت لصاحب المنزل حاجة إلى بعض معارفه بالبعد عن منزله، فنهض لها على أن ينصرف مسرعًا.

ونزل الشاب في داره مع امرأته(١)، وكانت غاية في الحسن وتِربًا للضيف في الصبا، فأطال رب المنزل المقام إلى أن مشى العسس(٢) ولم يمكنه الانصراف إلى منزله.

فلما علمت المرأة بفوات الوقت وأن زوجها لا يمكنه المجيء تلك الليلة تاقت نفسها إلى ذلك الفتى فبرزت إليه ودعته إلى نفسها، ولا ثالث لهما إلا الله عز وجل، فهمّ بها ثم ثاب إليه عقله. وفكر في الله عز وجل فوضع إصبعه على السراج فتفقع ثم قال: يا نفس، ذوقي هذا، وأين هذا من نار جهنم!

فهال المرأة ما رأت ثم عاودته، فعاودته الشهوة المركبة في الإنسان فعاد إلى الفعلة الأولى، فانبلج الصباح وسبابته قد اصطلمتها النار!

أفتظنُّ بلغ هذا من نفسه هذا المبلغ إلا لفرط شهوة قد كلبت عليه، أو ترى أن الله تعالى يضيع له هذا المقام؟! كلا إنه لأكرم من ذلك وأعلم.

---

(١) وهذا في غاية الخطر، فالشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو ثالث الرجل والمرأة، فإن لم يحفظهما الله تعالى ووكلهما إلى نفسيهما الضعيفتين هلكا.

(٢) أي: لمنع حظر التجوُّل في آخر الليل.

ولقد حدثتني امرأة أثق بها: أنها علِقها فتى مثلها في الحسن وعلقته. وشاع القول عليهما، فاجتمعا يومًا خاليين فقال: هلمِّي نحقِّق ما يُقال فينا.

فقالت: لا والله لا كان هذا أبدًا، وأنا أقرأ قول الله: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]. قالت: فما مضى قليل حتى اجتمعا في حلال»(١).

صاحب الغار

مشهورة قصة الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانطبقت عليهم الصخرة فمنعتهم من الخروج فدعوا الله تعالى بخالص أعمالهم فقال أحدهم متوسِّلًا إلى ربه تعالى بعفافه: «**اللّٰهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنة عم من أحب الناس إلي، وأني راودتها عن نفسها فأبت إلا أن آتيها بمئة دينار؛ فطلبتُها حتى قدرت، فأتيتها بها فدفعتها إليها، فأمكنتني من نفسها، فلما قعدت بين رجليها قالت: اتق الله(٢)! ولا تفضَّ الخاتم إلا بحقِّه(٣) فقمت وتركت المئة دينار، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرج عنا، ففرج الله عنهم فخرجوا**»(٤).

---

(١) رسائل ابن حزم (١ / ٢٦٩-٣١٠) بتصرف واختصار.

(٢) وهو أعظم تذكير على الإطلاق. فتأمَّلْها مليًّا: اتق الله!

(٣) أي: لا تجامع إلا عن زواج صحيح.

(٤) البخاري (٣٤٦٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

خبر سلامة الزَّرقاء مع عبد الرَّحمن بن أبي عمَّار

قال الزُّبير بن بكار: «كان عبد الرَّحمن بن أبي عمَّار من عبَّاد أهل مكَّة، فسمي القسُّ لعبادته.

فمرَّ ذات يومٍ بدار سهل بن عبد الرَّحمن بن عوف مولى سلامة الزَّرقاء، وهي تغنِّي، فسمع غناءها، فبلغ منه كلَّ مبلغ(١)، فرآه مولاها وتبيَّن ما لحقه، فقال له: هل لك أن تدخل إليها وتسمع منها؟ فامتنع وأبى، فقال له: أنا أقعدك في موضعٍ تسمع من غنائها ولا تراها ولا تراك. ولم يزل به حتَّى دخل وسمع غناءها، فأعجبه، فقال له: هل لك أن أخرجها لك؟(٢) فامتنع بعض الامتناع، ثمَّ أجابه(٣).

فأخرجها إليه، وأقعدها بين يديه، وغنَّته، فشغف بها، وشغفت به. وكان

---

(١) ويظهر من ذلك خطر الغناء وتسميمه للقلب الصحيح، حتى يعود سقيمًا من العشق، ويزداد الشر فورانًا في القلب إذا كان الغناء من امرأة. فإذا اجتمع النظر والسماع فلا تسل عن فساد القلب وقسوته، والله المستعان وهو المُسلِّمُ والحافظُ على المؤمن دينه وعافيته.

(٢) وهذا من رقَّة دين سيدها، فالواجب عليه صيانتها وحفظها وكفُّ الفتنة منها وعليها.

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [النور: ٢١].

أديبًا ظريفًا. واشتهر أمره معها بمكَّة حتَّى سمَّوها سلامة القسِّ[١].

وخلا معها يومًا، فقالت له: أنا والله أحبُّك. فقال لها: أنا والله كذلك. قالت له: أحبُّ أن أضع فمك على فمي. قال: وأنا والله. قالت: فما يمنعك من ذلك، فوالله إنَّ الموضع لخالٍ؟ فقال لها: ويحك، إنِّي سمعت الله عزَّ وجل يقول في كتابه: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧][٢]. وأنا أكره أن تكون خلّة ما بيني وبينك عداوة يوم القيامة.

ثمَّ نهض وعيناه تذرفان من حبِّها[٣] وعاد إلى الطّريقة التي كان عليها من النّسك والعبادة[٤]. وكان يمرُّ في بعض الأيَّام ببابها فيرسل إليها بالسَّلام[٥] فيقال له: أدخل فيأبى. وقال فيها أشعارًا كثيرةً، وغنّته بها. فمنها:

إنَّ التي طرقتكَ بين ركائبٍ ... تمشي بمِزهَرِهَا وأنتَ حَرَامُ
باتتْ تُعَلِّلنا وتحسبُ أنَّنا ... في ذاك أيقاظٌ ونحنُ نيامُ

---

(١) أي: نسبوها إليه تهكُّما به لاتِّضاع أمره بعد سموِّه ونسكه، لكنه نزع عن ذلك فعاد لصالح حاله بحمد الله تعالى.

(٢) وهذا لبقية الخير فيه، فلم يكله الله تعالى لنفسه فيقع في الفاحشة.

(٣) فللحب حرارة وألم في جوف العاشق العفيف.

(٤) وقال ربنا تبارك وتعالى في شأن العفيف يوسف عليه السلام وفي شأن كل عفيف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

(٥) وهذا تفريط منه، فالواجب حسم مادة الفتنة قبل اشتعالها في قلبه مرة أخرى.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

حتَّى إذا سـطعَ الصّـبـاحُ لنـاظرٍ فـإذا الـذي مـا بـيـنـنَـا أحـلامُ
قد كنتُ أعذِلُ في السَّـفاهةِ أهلَهَا فـاعـجـبْ بـما تـأتي بـهِ الأيَّـامُ
فـالـيـوم أعـذُرُهُـمْ وأعـلـمْ أنَّـما طُرُقُ الضَّـلالةِ والهُدى أقسـامُ[1]

الفتى والحجَّاج

قصص أهل العفاف كثيرة وما خفي منها أكثر مما اشتهر وظهر، والله لا يضيع أجر المحسنين الصالحين المخلصين العفيفين.

ومن ذلك: «أن الحجّاج بن يوسف عرض سجنه يومًا، فأُتي برجلٍ فقال له: ما كان جرمك؟ قال: أصلح الله الأمير، أخذني العسس وأنا مخبرك بخبري، فإن يكن الكذب ينجي فالصِّدق أولى بالنَّجاة.

فقال: ما قصَّتك؟ قال: كنت أخًا لرجلٍ فضرب الأمير عليه السير إلى خراسان، فكانت امرأته تجد بي وأنا لا أشعر، فبعثت إليَّ يومًا رسولًا قد جاء كتاب صاحبك فهلمَّ لتقرأه. فمضيت إليها، فجعلت تشغلني بالحديث حتَّى صلَّينا العشاء، ثمَّ أظهرت لي ما في نفسها، ودعتني إلى السُّوء، فأبيت ذلك.

فقالت: والله لئن لم تفعل لأصيحنَّ ولأقولنَّ أنَّك لص. فلمَّا أبيت عليها صرخت فخرجت هاربًا. وكان القتل أهون عليَّ من خيانة أخي. فلقيني عسس الأمير فأخذوني. فعرف صدق حديثه وأمر بإطلاقه»[2].

---

(١) أخبار النساء (١ / ١٠).

(٢) أخبار النساء (١ / ١٤).

عفاف أديب

عتب عبد الله بن طاهر على بعض كتّابه فسجنه في مقصورة. فأشرفت عليه جارية لعبد الله كانت حظية عنده، فنظرتْ إلى الفتى وكان أديبًا ووافقت نظرة منه إليها. فوقع في قلبها محبة شديدة، وعالجت الصبر عنه فلم تقدر عليه. فأخذت رقعة فكتبت فيها:

أيها الزاني بعيني ... وفي الطَّرْفِ حُتُوفُ
إن تُرِدْ وصلًا فقد ... أمكنكَ الظبيُ الأَلُوفُ

ثم دلّت إليه الرقعة بخيط، فلما قرأها كتب فيها:

إنْ تريني زانيَ ... العينينِ فالقلبُ عفيفٌ
ليسَ إلّا النَّظَرَ الفا ... تِكَ والعقلُ ظريفٌ

فلما رأته الجارية يكتب في الرقعة جوابًا فرحت، ولم تشكّ أنه فيها أرغب. فلما رفعت الرقعة وقرأتها ساءها ردّه، فقلبتها وكتبت في ظهرها:

قد أردناك على أن ... تجتلي ظبيًا ألوفا
فأبيت الآن لا ... زِلْتُ لقيديْكَ حليفًا

ثم دلّتها، فلما قرأها كتب فيها:

ما تركتُ الظبيَ إنّي ... كنتُ للظبيِ عنيفًا
غيرَ أنّي خِفْتُ ربًّا ... لم يزلْ برًّا رؤوفًا

فرفعت الرقعة، فلما رأتها ساءها ذلك، فأومأت بها لتجعلها في جيبها،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فجعلتها بين ثوبها وهي لا تدري. فدخلت مقصورتها، وجاء عبد الله ماشيًا في سطح قصره فمرّ بالرقعة فتناولها فعرف خط الجارية وخط الفتى، فعجب من عفته وصبره عنها على حسنها وجمالها، وكانت من أعزِّ جواريه عليه.

فدخل عليها فوجدها مكتئبة حزينة. فقال: ما هذه الرقعة يا فلانة؟ قالت: أعزّ الله الأمير، هي ما رأيتَ. قال لها: فاللهُ عليك شاهد أنّه لأحبُّ إليكِ منّي؟ قالت: إي والله. قال: فأمر الفتى ففُكّتْ قيودُه، وكساه وأجازه، وقال له: خذ هذه الجارية بجميع ما يحويه مُلْكُها ثوابًا لعفتك وتقاك وخوفك الله تعالى، ورفع مرتبته من كتابه، ولم يزل مكرمًا له(١).

عفاف الأعراب

قيل لبعض الأعراب ـ وقد طال عشقه لجاريةٍ ـ: ما أنت صانعٌ لو ظفرت بها، ولا يراكما غير الله؟ قال: إذًا، والله لا أجعله أهون النَّاظرين، لكنِّي أفعل بها ما أفعل بحضرة أهلها، حديثٌ يطول، ولَحْظٌ كليل، وتركُ ما يكره الرَّبُّ، وينقطعُ به الحبُّ.

والله تعالى لا يخيّب من دعا ووثق في كرمه وتفريجه، قال محمَّد بن عبيد الزَّاهد: كانت عندي جاريةٌ فبعتها، فتبعتها نفسي، فسرت إلى مولاها مع جماعة إخوانه، فسألوه أن يقيلني ويربح عليَّ ما شاء، فأبى.

فانصرفت من عنده مهمومًا مغمومًا، فبتُّ ساهرًا لا أدري ما أصنع، فلمَّا

(١) المستجاد من فعلات الأجواد، للدارقطني (١ / ٦٦).

رأيت ما بي من الجهد، كتبت اسمها في راحتي، واستقبلت القبلة. فكلَّ ما طرقني طارق من ذِكرها رفعت يدي إلى السَّماء وقلت: يا سيِّدي هذه قصَّتي!

حتَّى إذا كان في السَّحر من اليوم الثَّاني، إذ أنا برجلٍ يدقُّ الباب، فقلت: من هذا: أنا مولى الجارية. ففتحت، وإذا بها. فقال: خذها بارك الله لك فيها! فقلت: خذ مالك والرِّبح. فقال: ما كنت لآخذ دينارًا ولا درهمًا. قلت فلم ذلك؟ قال: أتاني الليلة في منامي آتٍ فقال: ردَّ الجارية على ابن عبيد الله، ولك الجنَّة.

وقيل لآخر: ما كنت صانعًا لو ظفرت بمن تهوى؟ قال: كنت أعصي الشّيطان في آثامها، ولا أفسد بضع عشرة سنين فيها يبقى ذميمًا عاره، وينشر قبيح أخباره في ساعةٍ تفقد لذّتها. إنِّي إذًا لئيمٌ، ولم يلدني كريمٌ(١).

وقيل لليلى: هذا قيسٌ مات لِمَا به من عشقك. قالت: ولقد خفت والله أن أموت بذلك منه. قيل لها: فما عندك حيلةٌ تخفِّف ما به؟ قالت: صبري، وصبره، أوْ يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين.

وقيل لعفراء، وقد بلغها ما نزل بعروة، فكادت تبوح بسرِّها فقيل لها: أما عندك له حيلةٌ تخفِّف ما به؟ فقالت: والله، لأنا أسرُّ بذلك وأشوق إليه منه، ولكن لا سبيل إلى احتمال العار، ودخول النَّار.

وصدَقت رحمها الله، فلا خير في لذة من بعدها النار!

---

(١) أخبار النساء (١ / ١٥).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقيل لميَّة، بعد موت قابوس: ما كان يضرُّك لو أمتعته بوجهك قبل موته؟ قالت: منعني من ذلك خوف العار، وشماتة الجار. ولقد كان بقلبي منه أكثر ممَّا كان بقلبه، غير أنِّي وجدت ستره أبقى لنا لما في الصّدر من المودّة، وأحمد للعافية.

وقال العتبي: قال أعرابيٌّ: إن لم يكن العشق ضربًا من السّحر، فإنَّه للسعةٌ من الجنون.

وسئلت أعرابيَّةٌ عن الهوى، فقالت: هو الهوان غلطٌ باسمه، وإنَّما يعرف ما نقول من أبكته المعارف والطُّلول.

وقد سئلت أعرابيَّةٌ عن صفة الهوى، فقالت:

الحبُّ أوَّله ميلٌ تهيم به ... نفس المحبِّ فيلقى الموت كاللعبِ
يكون مبدؤه من نظرةٍ عرضت ... أو مزحةٍ أشعلت في القلب كاللهبِ
كالنَّار مبدؤها من قدحةٍ فإذا ... تضرَّمت أحرقت مستجمع الحطبِ

ولمجنون ليلى في وصف مرض قلبه الخطير:

أصلِّي فلا أدري إذا ما ذكرتها ... أثنتين صلَّيت الضُّحى أم ثمانيا
أراني إذا صلَّيت أقبلت نحوها ... بوجهي وإن كان المصلَّى ورائيا
وما بي إشراكٌ ولكنَّ حبَّها ... وعظم الجوى أعيا الطَّبيب المداويا

وبعدُ: فإنَّ السعيدَ لَمَنْ جُنِّب الهوى واستراح من لأوائه وعذابه وقسوته وغفلة صاحبه عمّا فيه صلاحه في دنياه وعُقباه. وبالله التوفيق ومنه المعونة وبه الاعتصام وعليه الاتكال، والحمد لله رب العالمين.

وسبحان الناشر على الخاطئين جناح ستره، والكاشف الضر الذي بيده عاقبته، والمجيب الدعاء برحمته التي بالتوفيق أنطقت، والمنعم قبل الاستحقاق بنعمته سبحانه.

سبحانه كم سيئةٍ قد أخفاها حلمُه حتى دخلت في عفوه، وكم حسنةٍ ضاعفها فضله حتى عظمت عليها مجازاته، ورحم الله عبدًا وقف على سهو أو خطأ من أخيه فأصلحه عاذرًا لا عاذلًا، ومنيلًا لا نائلًا، فليس المرء بعيدًا عن الخطأ إلا من وقى الله سبحانه وعصم فلا إله إلا الله، ولا معبود بحق سواه.

اللّٰهم نسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى، اللّٰهم اكفنا بحلالك عن حرامك، وأغننا بفضلك عمن سواك، اللّٰهم لا تكلنا إلى أنفسنا فنعجز ولا إلى الناس فنضيع، وكِلنا إليك يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا حسيبنا ووكيلنا في الدنيا والآخرة، اللّٰهم اهدنا لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، إله الحق. وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ورجع بنا الحمدُ آخرًا كما ابتدأ أولًا، فلا محمود على الحقيقة ولا الكمال سواه، فالحمد لله رب العالمين.

نداءٌ مشفق من عسكر الأموات!

كأنَّكَ بالمضيِّ إلى سبيلكْ ... وقد جدّ المجهِّزُ في رحيلكْ
وجِيء بغاسلٍ فاستعجلوه ... بقولهمُ له أفرغ من غسيلِكْ
ولم تحمل سوى كفنٍ وقطنٍ ... إليهم من كثيرك أو قليلكْ
وقد مدَّ الرجال إليك نعشاً ... فأنت عليه ممدودٌ بطولكْ
وصلَّوا ثمّ إنهمُ تداعَوا ... لحملك من بكورك أو أصيلكْ
فلما أسلموك نزلت قبراً ... ومَن لك بالسلامة في نزولكْ
أعانك يوم تدخله رحيمٌ ... رؤوفٌ بالعباد على دخولكْ
فسوف تجاور الموتى طويلًا ... فذرني من قصيرك أو طويلكْ
أخي لقد نصحتك فاسمع لي ... وبالله استعنت على قبولكْ
ألست ترى المنايا كل حين ... تصيبك في أخيك وفي خليلكْ

مؤلفات إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

١- مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب

٢- التوحيد والإخلاص

٣- العبودية

٤- الصدق مع الله تعالى

٥- محبّةُ الله تعالى

٦- الشّوقُ إلى الله تعالى

٧- الأُنسُ بالله تعالى

٨- الإرادة

٩- العزم

١٠- الرّجاء

١١- الرّغبة

١٢- التّوكّلُ على الله تعالى

١٣- حُسنُ الظّنّ بالله تعالى

١٤- الثقةُ بالله تعالى

١٥- الافتقارُ إلى الله تعالى

١٦- الاستغناءُ بالله تعالى

١٧- التعلُّقُ بالله تعالى

١٨- الالتجاءُ إلى الله تعالى

١٩- الاعتصامُ بالله تعالى

٢٠- سلامةُ الصّدر

٢١- العفاف

٢٢- الصَّبر

٢٣- الرّضا بالله تعالى

٢٤- شكر الله تعالى

٢٥- حمد الله تعالى

٢٦- الفرح بالله تعالى

٢٧- ....

سلسلة

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)

١- محمد رسول الله ﷺ.

٢- هل انتشر الإسلام بالسيف؟

٣- كشف شبه أهل الكتاب عن الإسلام (١٣) شبهة.

٤- النصرانية من التوحيد إلى الوثنية.

٥- أخلاق الكنيسة وأخلاق الإسلام.

٦- يا سائلًا عن بني إسرائيل.

٧- المسجد الحرام والحج في صحف أهل الكتاب.

٨- سبع بشارات توراتية برسول الله ﷺ.

٩- أشهر بشارات العهد الجديد برسول الله ﷺ.

١٠- نظرة فاحصة في الكتاب المقدّس (البايبل).

١١- العقائد النصرانية في الميزان.

١٢- ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح عليهما السلام.

كتب منوّعة

١- (ولا تفرّقوا) معالم وتأصيلات.
٢- حديث الإفك (عَبرات وعِبر).
٣- لله درّك يا كعب.
٤- إذا ذُكر الصالحون فحيهلًا بعمر.
٥- كفاءة النسب وزيوف الجاهلية.
٦- صفحة مطوية من تاريخ الجزيرة العربية (إخوان من طاع الله).
٧- (ويكون الدين كله لله).
٨- نافذة على قصة الحضارة لديورانت.
٩- المُدهشات.
١٠- تهافت الليبرالية، أركون أنموذجًا.
١١- متى يشرع البحث في تفاصيل القدر.
١٢- وقد يجمع الله الشتيتين.
١٣- دموع على سفح الفؤاد.
١٤- نَظَرَاتٌ في أعماق النفس الإنسانية.
١٥- أزمة الفكر المادي.
١٦- السَّلفيّة محضُ الإسلام العتيق.
١٧- إضاءة الجنان من أضواء البيان (في حجاب الوجه).
١٨- رقائق المتقين.
١٩- شعاعُ الفكر (١) مقالات شرعية.
٢٠- شعاعُ الفكر (٢) مقالات فكرية وأدبيّة.
٢١- رياضُ الأُنْسِ. منتخبات نافعة من البداية والنهاية، للشيخ محمد الدميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تحقيق وتعليق).

٢٢- دمعُ الغَمَامِ مِن مَحَابِرِ الأعلَامِ. حكم وفوائد ووصايا وقصائد، جمع الشيخ محمد الدميجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (تحقيق وتعليق).

٢٣- الحنيفيّةُ، مِلَّةُ إبراهيم عليه السلام

٢٤- مِن سِيَرِ الرَّاحِلين.

٢٥- انفساخُ العَزَائِم وانتقاضُ الدَّعَائِم

٢٦- مقدِّمةُ الحَمويّةِ.. طلعَ الصَّباحُ فَأطْفِؤُا القِنديلَا.

٢٧- صَقِيعُ الفلاسفة (كيف تؤذي الفلسفة غير الرشيدة طمأنينة النفوس).

٢٨- مسائل مُلِحَّةٌ في القَدَر.

٢٩- من هو الماهر بالقرآن الكريم.

٣٠- مباحث فقهية.

٣١- معالم التوحيد والحنيفيّة في سيرة خير البرية ﷺ.

٣٢- إرشاد الحفّاظ في متشابه الألفاظ للقرآن الكريم.

٣٣- الإعجاز الربَّاني في اليهود.

٣٤- مَعْدِنُ الشَّجَاعَةِ والكَرَمِ.

٣٥- تعقيباتٌ على كتب شريفاتٍ، (على شرحي الإمامين النووي وابن حجر للصحيحين).

٣٦- الإقليد.. مفاتحُ للعلم، والعبادة، والدعوة، والسلوك.

- ولمن شاء تحميل جميع كتبي مجّانًا بصيغة pdf: اكتب في قوقل: (حمّل مجّانًا مؤلفات إبراهيم الدميجي). وستجدها كذلك في مدونتي الشخصية بإذن الله تعالى. **وهذا باركود التحميل المباشر لها:**

رابط التحميل المباشر:

حمّل مجّانًا مؤلفات إبراهيم الدميجي، من هنا.

الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة ـ جوال: 0502543917

لميس الغديري
lameesalghadeery@gmail.com
٠٠٩٠٥٣٩٤٣٩٧١٩